تعلمت من هؤلاء

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إلى هؤلاء العظماء الذين قدموا لنا كثيرا من المعاني الإنسانية الرفيعة، فكانوا عباقرة في الحياة سلوكا وقيما، كما كانوا عباقرة في العقول إبداعا وفكرا .. نهدي إليهم هذا الكتاب الذي يثبت أن الثقافة الراقية تنتج إنسانا عظيما راقيا تسعد به الدنيا ويصير القدوة في حياة الناس قولا وعملا.

مقدمة

كانت الغاية التي ساقتني لرصد هذه المواقف من حياة الأدباء، أن أجلي فيها بعض ما كان فيهم من سمات الرقي الإنساني، حتى يكونوا قدوة، نستلهم منهم العبرة الإنسانية، كما منحونا العبرة الأدبية.

وإذا كان هناك من يعظمونهم في مسارهم الأدبي، ويكبرون في عقولهم مواهب الفكر وتألق العقل، فقد أردت بهذه السياحة في عالمهم أن أقول للناس: إن هذه الثقافة، وهذا الأدب، وهذه المعرفة، كانت لها ما يعكسها من جوانب العظمة الإنسانية على المستوى الأخلاقي والسلوكي.

لقد أردت بهذا الذكر، إحياء هذه الأسماء في معالم القدوة الإنسانية، والفضيلة البشرية، كما يحيون كقدوة في ميدان الإبداع الأدبي والمعرفي.. وإنها محاولة في حقيقتها تريد أن تستجلي كثيرا من الحقائق التي ترتقي بالنوابغ والعباقرة إلى مرتبة العظماء، حينما تتطلب العظمة ذلك الامتياز والتفوق في كل الميادين الإنسانية والعلمية.

بل أردنا أن يقترب الناس من نفوس هؤلاء العظماء، ويتعرفوا على ظروف نشأتهم ومعالم جهادهم وكفاحهم، ليستلهموا منهم العبرة والسبيل لنيل المعالي، وتحقيق الطموح.

بل كان في حياة هؤلاء مما وجدناه من أفعالهم ومواقفهم، أشياء لا يلتفت إليها الناس ولا تسترعي اهتمامهم، وإذا بها حينما سلطنا عليها الضوء، ودللنا على كثير من مراميها ودلائلها، خرجت منها إفادات عظيمة، ودروس رائقة، ومعان سامية، ودلائل هادية للعقل والذوق والخلق والقيم.

بل أوقن تمام اليقين، أن استخراج العبرة من حياة هؤلاء، وتسليط الضوء النافذ حول طبائع نفوسهم، مما يعضد الاعتداد بفلسفات إبداعهم، ويجعل القارئ حينما يقرأ لهم، لا يقرأ إلا

وتصاحبه مشاعر الإكبار لهؤلاء الذين كانت لهم في الحياة حياة لا تقل رقيا وسموا عما قاله ونظموه ولقنوه.

لقد كانوا بشرًا كالبشر، تجري عليهم ما يجري على كل النفوس من الأخطاء والهنات، ولكن الموهبة القاهرة التي غلبت على عقولهم، ونطقت بها مشاعرهم، وعبرت عنها أقلامهم، استطاعت أن تخلق فيهم حياة تختلف في كثير من معالمها عن حياة الناس، بما أوعزت من جميل الذكريات، وما سجلت من كريم المواقف والأحداث.

يمكن لك أن تقرأ موقفًا من مواقفهم، ويخيل إليك أنك تعرفه، وليس فيما طرحناه عليك شيئًا جديدًا، لكنك لا شك حينما تقرأ تعليقنا واستلهامنا لهذه المواقف، وتدرك البعد الذي أجملناها فيه، ستعرف أن الجديد الحقيقي، فيما أبصرناه لك من الدروس المستفادة، التي خفيت على الذهن والعقل، ووظفناها فيما أحت به إلينا من مسار القدوة والقيمة الإنسانية، وأننا أتعبنا أنفسنا ونحن نرصد هذه المواقف بكثير من التأمل، حتى نخرج إليك بصورة ناصعة، تجسد لك جوابًا مهما حول هذا الألمعي أو ذاك العبقري، كيف كان يحيى، وكيف كان يعيش بين الناس.؟

لقد كان كل درس من هذه الدروس كفيل أن يمنحني القناعة أن أهتم به، وأحييه أمام عينيك، وأقول لك مذكرًا وداعيًا: تعلم من هذا واستفد، كما تعلمت أنا واستفدت.

هذا كتاب قيم يرصد معالم الإنسانية في حياة الكتاب من المفكرين والأدباء، نريد منه أن نبعث برسالة مهمة، تعكس هذا التحول الكبير الذي تحدثه الثقافة في حياة الإنسان، ليكون نموذجًا فريدًا ويكون مميزًا.

وبعد إذن يا قارئي، فهل تراني لمست الأدب من قريب أو بعيد، وهل ترى كتابي هذا يحسب في تيار الأدب رغم أنه يتحدث عن نماذج الفضيلة في الحياة، ويرنو سلوك المجدين نحو الذرى فيها.؟

ولكن أخي ما الأدب في غايته إلا رقي الذوق والفكر وسمو العقل والقلب، ورفعة الموقف والتصرف؟.

إن أديبًا لا تنفعه الكلمات بشيء لا أدب له، وعظماؤنا الذين بين يديك، كانوا أئمة في أدب النفس قبل أن يكونوا أئمة في أدب اللسان.. ومن هنا رأيت أو أعد مثل هذا الكتاب بما يحمل من سمات الإنسانية، استكمالا للعمل الأدبي، أو عملا يدخل في صميم الأدب عند من لا يفصلون بين الأديب ونفسه، وبين الأديب وسلوكه.

وإن الإبداع لا ينفصل أبدا عن الظروف والأحوال المحيطة به، فهي التي أثمرته وتسببت فيه، وفي معرفتك لنفس الأديب وخلقه وذاته، تكتمل لك الصورة الأدبية في أبهى معانيها وسمو مقاصدها.

حاتم إبراهيم سلامة

طه حسين

علمني طه حسين أن القرآن الكريم هو البداية الجيدة والقوية لتكوين الكاتب والأديب، وأن حفظ القرآن يلهم الصبي ملكات عظيمة من البلاغة البيان.. لقد كان القرآن الكريم هو الجرعة الأدبية الكبرى، التي جعلت منه أديبًا، وسلحته بالمعاني وصور البيان والأسلوب الفصيح، وهو ما اعترف به وأقره فيما ذكره أحد الكتاب: " ويكاد يكون من المسلم به عند كل مثقف عربي، أن حفظ القرآن أو تلاوته على الأقل، ذات أثر في القلم واللسان، سمعت طه حسين يقول لأعضاء المجلس الأعلى للتعليم، وهو وزير يرأس هذا المجلس، سمعته يقول لهم معززًا رأيه في الإكثار من النصوص القرآنية في المقررات المدرسية: أنا مدين للقرآن بأكبر قدر، إّذا اكتسبت منه النطق الفصيح، والأسلوب القويم، وحثهم على أن يكثروا منه في النصوص المقرر حفظها في المدارس."

علمني طه حسين شرف الخصومة، ونبل الخلاف، وفروسية الاختلاف، فقد كان العقاد خصمًا له، وندا له في ميدان الأدب والفكر، وطه حسين هو الذي لم يسلم من نقده أحد، ولم يترك أديباً أو عالماً أو مفكراً إلا وكان بينهما معارك وسجال، ورغم هذه الندية والشراكة في المهنة الواحدة، التي تفسح بينهما مجال الغيرة والنطاح والصدام، إلا أن هذه العوامل كلها لم تثن طه حسين أن يقدر العقاد، ويمنحه مكانته اللائقة به، ويعرف له مقامه الأدبي والفكري الذي حاول البعض أن ينكروه لخصومتهم معه.

ولم يكن الخلاف بين الأستاذين أدبياً فكرياً فقط، وإنما امتد ليشمل عالم السياسة أيضاً، فكان في التقائهما بعد المشرقين ليضربًا لنا المثل في ترسيخ ثقافة الاختلاف، التي تقود للتنوع والتعدد لا للتفرق والتشرذم، وهو ما عبر عنه (طه حسين) بقوله: نحن قوم نعرف كيف نختصم دون أن تفسد الخصومة رأي واحد منا في صاحبه؟ وقد أعلنها وكأنه يعلمنا أن نتحسس أقدار الناس وحسناتهم، في الوقت الذي نتغنى بسيئاتهم ونعدد هناتهم، وهي

تعكس في المقام الأول، سلامة النفوس ونقاء الصدور، ونظافة الأفئدة، وتوازن العقل وانضباط المشاعر.!

علمني طه حسين هذا النبل والرقي في أكثر من موقف، فمن الممكن أن تُعرض عن ذكر أندادك وخصومك، بما يسوء، لكنك تكون فرحًا مسرورًا بمن يتولى عنك المكيل لهم، فيطيل عليهم لسانه، ويرسل عليهم نبواته، لكن طه حسين ضرب لنا المثل في عفة نفسه، وعلمنا أن يكون الحق أقرب إلى نفوسنا من أهوائنا، مهما كانت أهواءنا تميل لها نفوسنا، وتغرد لها قرائحنا وخواجنا، وهو ما حدث يومًا حينما دخل عليه د. (عبد الرحمن بدوي) وكان في زيارته مجموعة من تلاميذ العقاد المقربين، وهنا لم يستطع الدكتور بدوي أن يلجم لسانه عن تقريع العقاد، وفتح النار عليه مغتاباً: إنهم تلاميذ العقاد! ما الذي أتى بهم إليك يا أستاذنا؟ العقاد هو أكثر الناس غرورًا وادعاء، وهو لا يفقه أي شيء لا في الدين ولا الفلسفة، ولكنه سليط اللسان فقط والناس بتحاشونه لذلك، والذي يقرأ كتب العقاد في الفلسفة الإسلامية، يجدها مليئة بالأخطاء، والذي يقرأ السلسلة المسماة بالعبقريات، يجدها مليئة بالمغالطات والسفسطة، ولذلك فالذين يترددون على صالونه لا يذهبون إلا مرة واحدة، وبعد ذلك يهربون منه.!

وأمام هذه العبارات الشديدة التي آلمت نفوس التلاميذ، لأنها مست أستاذهم وقدوتهم، ظهر الضيق على وجه طه حسين، فتراجع في مقعده ثم انحنى للأمام ثم أمط شفتيه وقال: لا لا يا عبد الرحمن، إنك تظلم الرجل، وتعطي لتلامذتك نموذجًا سيئًا للنقد أو للحكم على الرجال، إن العقاد يا سيدي رغم ما بيننا، أكثر الناس علما بعلوم القرآن واللغة، وأقدر مفكرينا على خوض بحار اللغة والنجاة منها، ثم العودة إلينا بصيد سمين ثمين، لقد ظلمته يا عبدالرحمن، إن العقاد قاس في أحكامه، ولكنه يأخذ نفسه أيضا بهذه القسوة، تمامًا كما يأخذ غيره، وهو لا ينقل شيئاً إلا إذا كان متأكدًا منه، وهي خصلة أحترمها كما أنه لا يدعي رأيا لنفسه، وإذا عرض رأيًا فإنه ينسبه لصاحبه، أما أنه جاهل فإني أخالفك تمامًا، وأما أن رواده قليلون، أو إذا زاروه مرة لم يعودوا إليه، فذلك مالم أعرفه عنه.!

وانتهى هنا إنصاف (طه حسين) الذي قدره تلامذة العقاد وأكبروه فيه، وندموا على أنهم لم يكونوا يعرفونه منذ زمن بعيد.

يقول طه وهو يعلمنا صفاء النفس ونبل الهدف وشرف الغاية: (لقد هاجمت العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة، خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب، وخاصمته في السياسة أيضا، ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار العقاد في نفسي.. وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه ومعاصريه، من يقدره مثل ما أقدره، أنا وأكبره وليس يعنيني أن يكون رأي العقاد فيّ كرأيي فيه، وإنما الذي يعنيني أن أقول الحق وإن كرهه الكارهون، وإن كرهه العقاد نفسه، والذين عاصروا خصومات العقاد، يذكرون من غير شك أني أثنيت على أدبه في جريدة السياسة، حيث كانت الخصومة بين الوفد والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات، وقد كانت الحرب سجالا بيني وبينه حربًا ولم يمنعه ذلك من أن يقوم قيام الرجل الكريم في مجلس النواب، يدافع عني حين كان الوفديون جميعًا علي حربًا، ولا أعرف أن الخصومة بين العقاد وبيني قد انقطعت، فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة..)

ومهما كانت هذه الخصومة كائنة وقائمة، إلا أنها كما رأينا، لا يمكن أبدًا أن تتخلى عن ساحة الشرف وميدان الأدب، فهي فيه قائمة على أصولها من الإنصاف والمصداقية مهما تعددت مواقف الخلاف أو طالت أزمانها.

تعلمت من طه حسين أن العلم شيء والعواطف النفسية من الحب والبغض شيء آخر! وأن أسعى إلى العلم مهما كان مكانه شائكًا كريهًا، حتى ولوكان في قلب رجل لا أحبه ولا تهواه نفسي، لقد أعجب طه حسين بأحمد زكي باشا، وكان تطربه محاضراته في الجامعة المصرية حين انسب إليها طالبًا في صفوفها، كان يعجبه كثيرًا ما كان يسمعه منه، وكان كان في هذا الوقت، ذلك الأزهري الذي لا يعرف إلا الصرف والنحو والتوحيد والمنطق والفقه والأصول، وشاء الله أن يلتقي بزكي باشا بعد افتتاح الجامعة بأيام، فانصرف عنه كارها له مبغضًا لحضرته، وذكر غلامه الأسود الذي كان يصحب طه ويدخل معه قاعة الدروس

[1] - راجع كتاب المعارك الأدبية لأنور الجندي

حينما منعه أحمد زكي باشا، فلما حدثه طه حسين قال له زكي باشا: وماذا تريد من استماع العلم إذا كان الله لم يرد لك أن تسمعه وحدك.! وهنا قال طه، هنالك هززت له كتفي، وخرجت من غرفته"

ثم يقول طه وهنا الشاهد والإشارة: "كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيًا عنها وكارها لصاحبها"

عملني طه حسين معنى الإنسانية في أسمى معانيها وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، كان يبسط يده بالبر والخير لكل الناس، وأولهم أعداءه وخصومه، كان دائمًا ما يثبت حضوره في قائمة المروءة، ولائحة الإنسانية، ليكون أول الأسماء البارزة فيها، والحريصة أن تنال شرفها وسؤددها.. ربما أتيح للرجل أن يتشفى في خصومه، أو أن ينتقم منهم، لكنه أبدًا كان عاليًا راقيًا سمحًا شهمًا عظيمًا رجلاً.

أرأيت ما فعله فيه الرافعي؟ وكيف كال له السباب والقذف العنيف فيما جرى بينهما من معارك أدبية؟ أرأيت ما سجله عليه في كتابه (تحت راية القرآن)؟ إن كنت لا تدري.. فاذهب هناك لترى كيف سلخة وجزره، هل تتوقع بعد ما تعرفه من هذا السباب، أن يكون في قلب طه حسين بعض لطف أو بصيص من رقة تجاه الرافعي؟ ذلك الرجل الحاد العنيف، الذي رماه بالسفه والحماقة وتخلف الذهن والإلحاد والتحذلق والجهل والكفر والاستهزاء بالأديان، وغير ذلك من التهم العتية التي مازالت تحفظها كتبه.

وأمام هذا كله، يبتسم طه ولا يغضب، بل حدث ما هو أروع وأعجب، مما يدلل على سمو الرجل وسماحة نفسه، فحينما انتقل الرافعي لرحمة الله، كان طه وقتها عميدًا لكلية الآداب، وكانت إحدى بنات الرافعي طالبة بهذه الكلية، وعجزت عن دفع المصروفات، فعرف طه حسين ذلك، وطلب من اللجنة المختصة أن تمنح بنت الرافعي المجانية، وأنه على استعداد لدفع المصروفات من جيبه الخاص.! فعل هذا رغم شراسة أبيها وعدوانه عليه.!

ثم انظر لهذا الرافعي المقاتل، حينما مات ورحل عن الحياة، وقد خلف وراءه كثيرًا من العداءات والخصوم، لقد اهتزت بلدان الإسلام كلها لموته، لكن خصومه الكثر، لم يتقدم

منهم أحد بكلمة عزاء لأهله، إلا رجلا واحدًا هو الدكتور طه حسين أشد خصوم الرافعي نبلا وشهامة.

عملني طه حسين أن أتريث كثيرًا قبل كتابة أي كلمة يمكن أندم عليها سلفًا، بل علمني معنى الندم في بعض ما أكتبه من كلمات يمكن أن تجرح الآخرين، غير مبال بما لها من عظيم الوخز والأثر، لقد كان عميد الأدب العربي واحداً من هؤلاء الذين عضوا أصابع الندم، حينما أخذته الحماسة ووقع في شرك التطاول، وانتهج قلمه منهج العدوان، لقد كان شاباً يتفجر حماسة واندفاعاً، وكان مشاكساً متمرداً يريد أن يضع لاسمه مكاناً بين الكبار، ولا ضير أن تكون هذه المكانة قد قامت وشيدت دعائمها على الاستهزاء والسب والتجريح والانتقاص ممن ينتقدهم، ورحم الله الشيخ عبدالعزيز جاويش، فهو الذي جرأه على ذلك، ونمى في نفسه هذه الروح العدائية، بل ربما كان يجد منه الإغراء والتحريض لذلك والحث عليه والتمادي في الإساءة إلى حد بعيد، ثم إنه في مقام آخر يحمّل الشيخ جاويش أسباب هذا الإسفاف ونتائجه.

لقد كتب يقول في الأيام: "ولم ينسَ الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألمًا لاذعًا وحزنًا مُمِضًّا، واضطرته إلى أن يسعى معتذرًا متوسِّلًا للصديق الذي مَن كُتبت فيه هذه الكلمة، كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب، فكان ممن شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه، وكان هذا الزميل ينتمي إلى أسرة كبيرة، ويَعدُّ انتماءه إليها من مفاخره، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عتقائها، فلما ردَّ صاحبنا عليه نسبَه إلى الأسرة، وبيَّن طبيعة انتسابه إليها لم يُرد إيذاء زميله، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له، ولم يُراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعًا في الصحيفة، ولامه فيه صاحباه، هنالك أسقِطَ في يده ولم يَرضَ زميله إلى بعد جهدٍ وعناء، وقد رضي الزميل وصفح، ولكن الفتى لم ينسَ هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة في مقال، حتى تفكر وتقدِّر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلًا!"

ثم يبدو أنه لم يتعلم الدرس حين كانت السقطة الكبرى، التي ندم عليها ندماً كبيراً، فيعلن أن استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها لم ينقطع كلما ذكرها أو ذُكرت له، وكان موضوعها « نظراتٌ في النظراتِ » ويقصد بها نقد نظرات المنفلوطي رحمه الله، حيث قرأ الفصول الأولى منها راضيًا عنها، مُعجبًا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها، ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب، حتى ضاق بها أشدَّ الضيق، وكتب يعيبها وينتقصها، ويفرح الشيخ جاويش بالمقال أيما فرح، ودعاه لمزيد منها وشاكلتها وألحَّ في التحريض، حتى ألقى في رُوعه ألا يدع فصلًا من فصول المنفلوطي، إلا اختصه بفصل من النقد، وكان طه حسين كما يقول: قديم المذهب في الأدب، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده، أنه يُخطئ في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطنع ألفاظًا لم تثبت في« القاموس المحيط » ولا في « لسان العرب » وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف، إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة.

ولم ينسَ طه أبداً مقالًا دفعه ذات يوم للشيخ جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له، وأبى إلا أن يقرأه على من يحضرون مجلسه، وابتهج طه بما يسمع من ثناء الشيخ عليه، ودب في نفسه أنه أصبح كاتبًا ممتازًا، وكان هذا المقال هو الذي جرح فيه المنفلوطي، وكان من مطلعه "عِمْ صباحًا أو مساءً، واشرب هواءً أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء» وهو المقال الذي إذا ذكره طه فيما بعد، حتى طأطأ الرأس خجلاً وحرجاً وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم.

تعلمت من طه حسين معنى المروءة الأدبية، ومعنى أن يكون الأديب ذو مروءة ينافح بقلمه عن الحق وينصر به المظلوم، ويغيث به المريب من أن تناله يد بطش وحقد وسوء، فحينما كتب الأديب ثروت أباظة روايته الشهيرة (شيئ من الخوف) والتي تصور زواج فتاة ريفية وهي فؤادة، من رجل خارج عن القانون وهو عتريس، فقد قصد ثروت أن يصور بأن مصر

هي فؤاده وعتريس هو عبد الناصر، ولما بدأت الشكوك تحوم حول المغزى من الرواية، سارع عميد الأدب العربي (طه حسين) بنقد الرواية في الصحف، وانحرف بالمقصد تمامًا عن أي معنى يُلمح لهذه الطامة، ولما كلمه ثروت في ذلك، قال له طه :أردت أن أحميك من أي عقاب ينزلونه عليك لو أُخذ الأمر كما يظن المتقولون.

علمني طه حسين معنى العفو وأنه من شيم الكرام، وأنها فضيلة تستوي في الأديب قبل غيره، حتى ممن أساء إلي أو أخطأ في حقي، فما أن أدعى للعفو، فما علي إلا أن ألبي، ففي أوائل عشرينيات القرن الفائت، كان المرحوم الأديب الأستاذ عبدالله حبيب موظفاً صغيراً بدار الكتب، كان متوثب الفكر، مفتوناً بشبابه، لا يقدر عواقب ما يخط بقلمه.

وفى أواخر عام ١٩٢٢ نظم شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم قصيدة يحيى بها الملك فؤاد بمناسبة افتتاح المدرسة الثانوية التي حملت اسمه، فتناول الدكتور طه حسين هذه القصيدة بالنقد اللاذع في مقال له بجريدة السياسة.. وتألم حافظ من هذا النقد وعز على عبدالله حبيب أن يتألم حافظ، فكتب مقالاً قاسياً في صحيفة الأفكار؛ دافع فيه عن قصيدة حافظ وهاجم مقال طه حسين، هجوماً تعثر به قلمه في مزالق المسئوليات الجنائية.

وامتدح حافظ جرأة عبدالله حبيب وأدبه وقبله قبلة شكر عميقة.. واغتبط الأستاذ حبيب بهذا التقدير، ولكن اغتباطه لم يطل، إذ قدم بعد قليل إلى محكمة الجنايات متهماً بالقذف في حق الدكتور طه حسين، واستمرت محكمة الجنايات تنظر الدعوى نحو عام، وفى اليوم الأخير، تفرس رئيس الدائرة في وجه الأستاذ حبيب قليلاً ثم أمر برفع الجلسة، وطلب حضور المدعى والمحامين والمتهم إلى قاعة المداولة، ولما استقر بهم المجلس توجه رئيس الدائرة إلى الدكتور طه حسين قائلاً: لعل الدكتور طه حسين يوافقني على أن هذا الكاتب الشاب، لم يدفعه إلى كتابة هذا المقال إلا نزق شبابه، أما التهمة فثابتة، وأما العقاب فمحقق.. لكن أليس أجمل أن تصون مستقبل هذا الشاب بتنازلك عن الدعوى؟ وتأثر الدكتور طه أعمق التأثر، وأجاب دون تردد: قد تنازلت.. وأفاق عبدالله حبيب من كابوس فظيع ودهشة عارمة، ووجد نفسه مكباً على رأس الدكتور طه يقبله ويعتذر إليه في عمق وحرارة.

علمني طه حسين معنى التواضع في الكلمات والمواقف، وأن الإنسان بسيط جدًا مهما أوتي من حظوظ الدنيا من المواهب والمناصب والشهرة الواسعة، فلقد كلفت مجلة «الاثنين» التي كانت تصدرها دار الهلال، أحد محرريها بجمع مواد لموضوع «درس تعلمته من أبى» وهى تتلخص فى دروس وعاها أبناء العظماء عن آبائهم.. ولما طلب المحرر تليفونياً منزل الدكتور طه حسين ليسأل عن ابنه «مؤنس» رد الدكتور طه نفسه، ولما علم من المحرر بالموضوع قال: لكن الموضوع عن أبناء العظماء.. ومن قال لك أن «مؤنس» ابن عظيم؟!

تعلمت من طه حسين حب اللغة العربية والحرص على سلامتها، والنفور من أي خطأ في بنيتها، خاصة ممن يفترض أنهم حماتها ومعلموها، فعندما كان الدكتور طه حسين وزيراً للمعارف، أصدر قراراً بتعيين أحد المدرسين، ومضت فترة دون أن يتسلم هذا المدرس عمله، فقدم للوزير شكوى يقول فيها: «إننى لم أتسلم عملي بسبب نقص «مصوغات» التعيين، وعندما تلى هذا الخطاب عليه، واستمع إلى كلمة «مصوغات» أمر بصرف النظر عن تعيين هذا المدرس، لأن الكلمة مسوغات وليست مصوغات.

وكتبت إليه مراقبة اللغة العربية بالوزارة تقول: «نرجو انتداب المدرسان فلان وفلان إلى مدارس كذا وكذا، فأمر د. طه حسين بأن يؤشر على الخطاب بما يأتى: "يعاد إلى مراقبة اللغة العربية أو مراقبة محو الأمية".

تعلمت من طه حسين حب تلامذتي وتحقيق أمانيهم، والحرص على تحقيق طموحاتهم، ما بادلوني الحب والوفاء، بل أنا في سبيل محبتهم وتحقيق مرادهم يمكن أن أقدم كثيرًا من التنازلات التي تتعلق بامتيازاتي في الحياة، بل هو أيضا من قبيل أو جميل تواضعه، انظر إليه حينما كان هو الأستاذ المشرف على الرسالة التي تقدمت بها عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي في موضوع رسالة الغفران، وأجيزت الرسلة للمناقشة منذ عام ١٩٤٨، غير أنه حيل بين الدكتور طه وبين حضور مناقشتها

لاعتبارات سياسية عارضت يومئذ دخوله كلية الآداب وكان مجلس تلك الكلية قد رفض تعيينه أستاذاً غير متفرغ بقسم اللغة العربية.

ولكن الطالبة «بنت الشاطئ» تمسكت بضرورة حضور الأستاذ المشرف.. فظل الأمر معلقاً حتى تولى الدكتور طه حسين وزارة المعارف في يناير ١٩٥٠، وعندئذ قررت كلية الآداب مناقشة الرسالة، واشترك الدكتور طه في مناقشتها بصفته المشرف عليها، وكانت لوائح الجامعة تقضى بأن يكون عميد الكلية هو رئيس لجنة المناقشة، وبذلك فإن الدكتور طه يكون مرؤوسًا لعميد الكلية، وكان هو المرحوم الدكتور زكى حسن، وسئل الدكتور طه عما إذا كان هذا لا يتعارض مع منصبه كوزير للمعارف ورئيس أعلى للجامعة؟.. فأجاب بأنه إذا تعارضت التقاليد الوزارية مع التقاليد الجامعية، فإنه يعتبر نفسه في هذه الحالة جامعياً لا وزيراً، وأنه متنازل عن منصبه الوزاري طيلة فترة مناقشة الرسالة.

علمني طه حسين معنى المسؤول الشريف النزيه، الذي لا يمكن أبدًا أن يستغل منصبه لمصالحه الشخصية وإزكاء نفسه، والترويج لمنجزاته، وقد كان طه بذلك مثالا للمسؤول النبيل النزيه، الذي حقق معنى الشرف في توليه المسؤولية، وهذا ما حدث عندما عرض عليه تقرير لجنة الكتب الإضافية للمدارس الثانوية وما في مستواها، فقد لاحظ - وكان وزيراً للمعارف - أن من بين هذه الكتب كتابين من تأليفه، وبالرغم من أنهما كانا مقررين من قبل توليه الوزارة، إلا أنه رفض أن يعتمد هذا التقرير، إلا بعد حذف الكتابين وتقرير كتابين آخرين غيرهما.

وحاول بعض المختصين إقناعه بالعدول عن هذا الرأي، حتى لا يحرم الطلبة من أدب طه حسين، ولكنه أصر على قراره، حتى لا يقال: أن وزير المعارف يُقرر كتبًا لنفسه.

علمني طه حسين أن أقف بجوار من حولي في أزماتهم وكروبهم وما يعكر صفو حياتهم من أزمات النفس، وأن أبعث فيهم الأمل والرجاء، وهو ما فعله مع الأستاذ على الجندي - عميد كلية دار العلوم سابقاً – الذي قد تعرض لضائقة نفسية حملته كراهة في الحياة، فحمله

الدكتور طه حسين على أن يتفتح للحياة حباً في الحياة.. وقد شكره الأستاذ الجندي برقياً بأبيات شعرية، لأنه كما قال، استحى أن يقابله... وفيما يلى نص تلك الأبيات:

من لى بمثل بيان طه ** مبدع السحر الحلال

حتى أقوم بشكر ما ** أوليت يا فخر الرجال

كنز المروءة أنت بين ** العالمين بلا جدال

حققت آمالاً ظننت ** بلوغهن من المحال

فلك الثناء ولا برحت ** لجيلنا أبهى مثال

وأبى كرم الدكتور طه إلا أن يرد عليه بهذين البيتين:

من لي بقلب مثل قلبك ** أو بفن مثل فنك

حتى أقوم بشكر ما ** أوليتني من حسن ظنك

ثم دعاه بعد ذلك ليتناول معه القهوة في منزله.. وعقب أن تلاقيا وتصافحا، جرى بينهما حديث بدأه الدكتور طه حسين بقوله: والله لا أقبل شكراً.. فكان جواب على الجندي: ما جئت لأشكرك، ولكن جئت لأحتج، أولاً: لأنك محوت شكري بشكرك، ولعلك في هذا تريد أن تقتدى بيحيى بن خالد البرمكي، فقد قيل له: «إن قوماً جاءوا يشكرونك، فقال: «من لنا بشكر شكرهم؟!»

وثانياً: إن شعرك، على وجازته، خير من شعرى وأجمل باعتراف الشعراء، فكأنه لم يكفك أنك حُلت بيني وبين مقابلة الجميل بمثله، حتى زدت على ذلك.. إنك أزريت بشاعريتي وخلفتني متخلفاً وأنا شاعر محترف، فضحك الدكتور طه حسين.

علمني طه حسين معنى التحمل والصبر، نعم تحمل ذلك الألم الذي يجده ممن فقدوا الذوق والإنسانية في كلماتهم ومواقفهم، لم يعدمهم طه في حياته، فقد قابل الكثيرين منهم، لكنه صبر وتجلد وتحمل، تعود طه منذ صغره، أن لا يعدم أولئك الذين يوخزونه في مشاعره، ولكنه أمام هذا الوخز، كان جبلا شاهقا، فلم تحقد نفسه ولم يمتلئ قلبه بالكره والبغض للبشر.

سافر طه حسين إلى الأزهر كي ينهل من العلم ويحقق أمنية أبيه فيه.. ذلك الأب الذي يستبشر في غلامه أملاً كبيرًا ومستقبلا واعدًا، ورحل الغلام الصغير في صحبة أخيه الشيخ أحمد، يسكن معه في غرفة واحدة، وظن طه أن أخيه سيكون أنيس أخيه في وحدته، وأن أخاه سيكون أنيسه في ظلمته.. ولكن عذابه تضاعف، فقد أضيف لعذاب ظلامه عذاب الوحدة، حينما كان أخوه يتركه في غرفته بعد درس الظهر ليقضي الوقت مع أصحابه في مرح ومدارسة، يشربون الشاي ويتندرون بالأحاديث والملح المسلية.. كان الفتى يتوق إلى مجالسهم ، وكان لا يستطيع أن يطلب من أخيه أن يصحبه إلى حيث يذهبون ليسري عن نفسه التي تغط في الآلام، كان شديد الإحساس على أخيه كما كان شديد الإحساس منه، كان يتركه هكذا هملا دون أنيس أو جليس، لا يشعر به ولا يحس بألآمه وهو مازال الصبي الصغير الذي يهوى اللعب والأنس، وكان يعطيه في الليل عشاءه رغيف وقطعة جبن يضعه أمامه وينصرف عنه إلى الأزهر لدرس الأستاذ وكان الصبي يقلل على طعامه حينما يأكل أخوه معه، وكان ينهي على طعامه حينما يتركه وحده، ففي الأولى لم يطرق إلى ذهن أخيه أن يسأله: لماذا أكلتك قليلة ولقمتك ضئيلة؟ وفي الحالة الثانية فإن طه كان ينسف الطعام كله، حتى لا يعود أخاه فيظن به المرض أو الحزن، وكان أبغض شيء إلى نفسه أن يثير في نفس أخيه هما أو قلقًا، وفي ليلة من الليالي هم أخوه الأكبر أن يذهب سامرًا مع أصدقائه فهيأ أخاه لنومه وانصرف عنه، فلم يكد يبلغ الباب، حتى تغلب الحزن على نفس الصبي فأجهش بالبكاء الذي كتمه ما استطاع في نفسه.

ولك أن تتأمل كل هذه الأحاسيس المجروحة في نفس هذا الغلام الذي لا يجد من يشعر به أو يحس بآلامه، فهي صورة تستدعي الأسى والرقة لحاله، ولكنك لا تدرك، ولا هو أيضًا كان يدرك أنه سيتعرض لأكثر من هذا البلاء وأشد إيلامًا.! سيتعرض فيه لما يفتك بأحاسيسه فتكًا، فقد صور في كتابه الأيام، أن كل هذا الذي وجده من إهماله أخيه له

وحرمانه من صحبته، لم يكن ليمثل شيئًا أمام هذه الكلمات التي نزلت عليه كالصاعقة، وهو ذاهب لامتحان القيد بالأزهر، وحينما نادى عليه ذلك الشيخ العتي الجبار، الذي لا يراعي حرمة للإحساس ولا خاطرا للمشاعر، خاصة وأنها مشاعر صبي قد تبلغ منه درجة القسوة مبلغًا لا يحتمله، ولعلها أن تكون ذلة لسان من هذا الشيخ أو خطأ في النداء لا يقصده، ولكنه بغشم مفرط، يصر عليها حينما أراد أن يُثني عليه فقال له: فتح الله عليك يا أعمى.!

يا لها من كلمة لا تفقد الإحساس والشعور فقط، ولكنها تفقد معنى الإنسانية.

تعلمت من طه حسين بل من فكره ونظره، أن تحقيق الطموح والرغبة، ينبني على عاملين اثنين أساسيين في أوّلهما : "العلم، أو التعليم ، فبالتعليم استطاع أن يشقّ لنفسه طريقاً أفضى به إلى الأزهر، وبالتعليم انتقل من الأزهر إلى الجامعة المصرية، وبالتعليم كذلك نال تلك المكانة المرموقة بين معاصريه، وبين من جاؤوا بعده. وبالتعليم انتقل من حياة الشظف، والفقر والخصاص إلى حياة الرفاهية والنعيم، وبه انتقل من الغضارة إلى الوزارة، حيث كان مستشاراً ،ثم وزيراً للمعارف والتعليم ،وبالتعليم كذلك بلغ عمادةَ الجامعة ثمّ عمادة الأدب العربي. وكان يقول : " إنّ العلم كالماء والهواء يجب أن يكون متاعاً لكل أفراد الشّعب ،ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية حقيقية من دون أن يتعلّم الشعب" ولهذا السبب لُقّب بوزير الماء والهواء !"

وفي كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" يعرض طه حسين آراءَه في العلم والتعليم ، وفيه يقول: " كي ننشئ لمصر الحديثة أجيالاً من الشباب كراماً أعزّاء، لا يتعرّضون لمثل ما تعرّض له بعض أجيالنا السابقة من الذلّة والهوان، سبيل ذلك واحد لا ثانية لها وهي بناء التعليم على أساس متين"، وهكذا يصرّ على التعليم الذي يفضي إلى المقاصد النبيلة والكريمة للأمّة من حرية وديمقراطية حقّ كقاعدة أساسية لبلوغ الغايات من استقلال، وتقدّم ،ورقيّ، ورخاء، وازدهار".

والعامل الثاني الذي يؤكّد به هذا الطموح هو الإيمان بالعمل ، فطه حسين لم يعرف اللهو في حياته إلاّ لماماً ،بل على العكس كان شغوفاً بالعمل، مهووساً به إلى أبعد الحدود، لأنه كان يرى فيه الدّافع الأساسي لتغيير مجريات الأمور ، وتحريك السّواكن، يقول في كتابه " مرآة الضمير الحديث" :" إنّ تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذي يُقال عن إخلاص أو تكلّف، أوعن تفكير أو اندفاع وإنما يكون بالعمل الذي ينقل الأشياءَ من طور إلى طور" كما يؤكّد نفسَ هذه المعاني في كثيرٍ من كتبه سواء التاريخية، أو الأدبية وغيرها." [٢]

عباس محمود العقاد

العقاد وما أدراك ما العقاد، ذلك العملاق الكبير الذي كانت حياته كلها لا للعلم ولا للأدب، بقدر ما كانت للإنسانية، والتي نحاول الآن أن نصوب إليها فكرنا وتأملنا لنجول في حياة العقاد الإنسان وماذا تعلمنا منه؟

تعلمت من الأستاذ العقاد، علو الهمة وجسارة الهدف، وأن الإنسان يستطيع بلوغ المجد وحده وبعصاميته، دون الاتكال على شهادة أو درجة علمية، ترفع من شأنه أو تثبت وجوده، وإذا كانت الشهادات سبيل العلم، فقد أثبت العقاد أن همة المرء وحماسه وعزمه يمكن أن يحقق له الكثير والكثير، وقدر نرى في الحياة من يلقبون بأعظم ألقاب العلم، ويحوزون أرقى شهاداته، بينما عقولهم منحسرة ضيقة عن الثقافة الرصينة والعلم الجاد المنير، لقد أشار الجميع بالبنان لهذا العملاق الذي لم يكمل تعليمه، فقد عكف على نفسه ينميها ويضخمها ويرتقي بها حتى بلغت كعبها العالي في دنيا المعالي، اكتفى العقاد من التعليم بالمرحلة الابتدائية فقط، لعدم توافر المدارس الحديثة في أسوان، وكذلك لموارد أسرته المحدودة، التي لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة لإكمال تعليمه، فاعتمد على ذكائه الحاد، وصبره على التعلم والمعرفة، وثقف نفسه بنفسه، حتى صار من عباقرة الزمان ونوادره، ليس في العلوم العربية فقط، وإنما في الأدب الغربي كذلك، فتعلم الإنجليزية واطلع على ثقافات

[٢] - من مقال لنصير شمة بجريدة القدس العربي السنة السادسة والعشرون ـ العدد ٨٢٧٧ الخميس ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥

متنوعة، وكثيرون من أدباء العالم قدامى ومحدثين، لم يكن حظهم كبيراً من التعليم ، ولكنها الثقافة الذاتية التي انطلقت بهم إلى آفاق العبقرية.

تعلمت من الأستاذ العقاد القراءة الموسوعية، والتبحر في عالم القراءة، والنهم والشغف بها إلى حد يعجب العقول والأذهان يخلق عقلا كبيرا، وأن القراءة ليست متعة وليست مجرد شغف، ولكنها حياة تضاف فوق الحياة، وتضيف لصاحبها أعمارًا فوق عمره، وخبرات فوق خبراته: حيث قال: (لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة، لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة.. والقراءة دون غيرها، هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.. فكرتك أنت فكرة واحدة.. شعورك أنت شعور واحد.. خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.) [1]

تعلمت من العقاد أن القراءة والكتابة هي المعنى الحقيقي للحياة، أو معنى الحياة الحقيقية، بل هي هدف الحياة، فإذا لم تكن فلا حياة.. قال له الأستاذ (طاهر الطناحي) يومًا: "إن بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة، يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة وتزيد، فماذا يكون شعورك وقتئذ وما الكتاب الذي تؤلفه؟

فأجاب: إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة، ولو كان ذلك غدًا.! ثم تحدث عن أكبر أمانيه في حياته، والتي لم تكن في المال أو الجاه أو المنصب، وإنما كانت في تأليف كتاب عن الإمام الغزالي وفلسفته، وقد عكف على القراءة عنه بعمق في مراحله الأخيرة، ليضع عنه هذا الكتاب، لكنه رحل قبل أن يبدأ فيه.!

(١) أنا – عباس العقاد – ط نهضة مصر

تعلمت من العقاد أن القراءة منذ الصغر تثمر عقلا عظيمًا، تعلمت منه أن الارتباط بالكتاب صغيرًا، وما تتيحه ظروف النشأة أثر كبير في تكوين هذا الحب في النفس، فقد كان والده من أنصار الحركة العرابية، وكان العقاد يرى في بيت أبيه مجلة الأستاذ وغيرها من مجلات عبد الله النديم، ومعها أعداد قليلة من أبو نضارة والعروة الوثقى، ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء.. ثم كبر العقاد وكبرت معه هواية القراءة إلى حد التغول، (فاشتهر بسعة اطلاعه وكثرة قراءته لمختلف الكتب، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قرأه، وكانت قراءته سريعة دقيقة، ويفضل قراءة كتب فلسفة الدين وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء ودواوين الشعر.

تعلمت من العقاد أن أتطلع إلى التأسي بالكبار، وأن أحاكيهم في أمجادهم ونشاطهم، فقد كان يسمع على الدوام أخبارًا في سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ولا سيما النديم.. مما دفعه أن يحاكيه وهو صغير بإعداد مجلة اسمها (التلميذ) على غرار مجلة (الأستاذ) التي يصدرها النديم، ثم يقول: إن هذه الظروف اقترنت بها رغبة ملحة في القراءة والكتابة.

تعلمت من العقاد أن البيئة القارئة تنجب عبقريًا قارئا، وأن القدوة في الوالد خير توجيه للناشئ الصغير، فقد كان يرى والده يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية، وتراجم الأولياء الصالحين، ولم يقتصر الأمر على والده، وإنما كان يرى أخواله يقرؤون كتب التصوف والأدب الديني، ولا سيما كتب الغزالي، ومحيي الدين بن عربي، وغيرهم من المتصوفة المتأخرين، ثم يصحبه والده إلى مجلسه، مع شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين يسمرون معه في المندرة، ويقضون أوقاتهم في الحديث عن السياسة والأسرة الحاكمة، وقد أفادته هذه الجلسات فائدة كبرى، كانت انطلاقة الفتى اليافع نحو

القراءة والمطالعة، التي أحبها حينما رأى اهتمام من حوله بها.. وهي بمثابة عملية تشجيع ذاتية، وتوجيه غير مباشر تتوق إليه النفس، حينما ترى المناخ من حولها مصبوغًا به.

تعلمت من العقاد أن الإنسان يمكن له أن يحيي سيرة العمالقة القدماء، وأن يساويهم في العبقرية والهمة، وإذا كان العالم لا يعرف مثل الجاحظ في عشقه وهيامه بالكتب، فإن العقاد في العصر الحديث، أعاد سيرة الجاحظ، وكان مفخرة الشرق، إنه العملاق الذي وصفناه بالقارئ الجبار، حيث كان يتندر بما وصفه به توفيق الحكيم وتخيله له في بعض كتبه، بأنه دخل الجنة، وذهب يطوف في أرجائها، عسى أن يرى وجهة مكتبة يقف أمامها، ويتأمل عناوين الكتب فيها، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتبًا، ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟.. جنة بلا كتب؟

وعلق على هذا بقوله: (إن الحكيم صادق في تخيله، لأنني فعلا لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها.. نعم لا أطلع فيها وليس من الضروري أن أقرأ، فالقراءة هي إحدى صور الاطلاع)

ويحكي تلميذه النجيب الكاتب الكبير الراحل (أنيس منصور) في كتابه (في صالون العقاد كانت لنا أيام) أنه أراد ذات يوم أن يثبت للعقاد، أنه لم يقرأ كل شيء ولا يعرف كل شيء وخصوصًا في الفلسفة الوجودية، وهي تخصص أنيس منصور، وقام متباهيًا بذكر أسماء الكتب التي قرأها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، فسأله العقاد: كم كتابًا له عندك؟ فقال أنيس: كل الكتب التي ترجمت إلى الإنجليزية وهما كتابان، فضحك العقاد ونادى خادمه وقال: هات الكتب الملقاة على السرير، فكانت المفاجأة، بأن جاء الخادم بسبعة كتب للفيلسوف الألماني، وضحك العقاد ليقول: كل شيء موجود هنا يا مولانا، إنني أطلب الكتب وهي في المطبعة.!

تعلمت من العقاد الصلابة في مواقفه الوطنية، وقلة اكتراثه بالملك والسلطان إذا عمل على أي إجراء عبثي ينال من الدستور وسلطة الأمة، فبعدما مات سعد باشا زغلول و تغيرت بعض سياسة الوفد في مهادنة الإنجليز أحيانا للتغلب على القصر ورجاله، و في التهادن أحيانا مع القصر لمهاجمة الإنجليز، و كان طلب الاستقلال يقدم للإنجليز بطريقة يرفضها العقاد، فانقلب العقاد على الوفد و اعلن عدم انتمائه لأى حزب، و رشح نفسه في البرلمان المصري و كان يقول أنا لست متحزبا و لكنى لسان حال المصريين و في إحدى جلسات البرلمان المصري وفي حضور رئيس الحكومة المصرية آنذاك مصطفى باشا النحاس، و كانوا يتناقشون إمكانية إعطاء المزيد من الصلاحيات للملك على حساب الدستور و تعطيل بعض مواده، رفض العقاد هذا بشدة و قام يخطب في الجالسين و قال فيما قال: (إن الأمة على استعداد لسحق اكبر رأس في البلاد يخون الأمة و يعتدى على دستورها) و كان يقصد بأكبر رأس في البلد الملك فؤاد الأول، و علم بهذا القصر و حاكمه بتهمه العيب في الذات الملكية و حكم عليه ٩ شهور.

تعلمت من العقاد حبه واهتمامه باللغة العربية، إذ كان يرى أن العناية بها هو من أهم سبل التقدم، و كان يري اذا أصبح كل فرد يتكلم العربية بطلاقة و يقرأ بها و يفتخر بها دائما، فإننا قد أنجزنا شوطا كبيرا من التقدم، بل تعلمت منه حب الإسلام فقد كان يري أن الإسلام مع التقدم العلمي هو خارطتنا نحو الآفاق، و كتب في هذا عدة كتب كان منها، الإسلام فى القرن العشرين، و الإسلام دعوة عالمية، الديمقراطية في الإسلام، والتفكير فريضة إسلامية، وأثر العرب في الحضارة الأوروبية و الثقافة العربية.

تعلمت من القعاد كيف تثمر الثقافة فراسة قوية تدهش الألباب وتبهر العقول، وتكاد تكون لمن يراها علما بالغيب، لكنها فراسة العلماء وخبرة الحكماء، ففي كتابه (في صالون

العقاد كانت لنا ايام) يقول أنيس منصور: انه ذات يوم تجمع تلامذة العقاد حوله في بيته وناقشوه في مسائلهم فإذا بفتاه بينهم تهاجم العقاد و تقول له: أنت رجل كلام، كلكم لا تجيدون إلا الكلام، و ترددون عبارات لا تفقهون منها شيئا، إنني أقدر الرجل الهندي الفقير الذى يمشى نصف عاريا عنكم، انه رجل ترك الدنيا وتخلى عنها لأناس مثلكم يتكالبون عليها، و انى لأرى المرأة بينكم هي صيد تترهانون عليه، فما اقبح عقولكم، وبعد تلك الكلمات سكت الجميع و انتظروا عاصفة من العقاد يطيحهم بها على عادته أحيانا عندما يغضب أو يعلن اختلافه، و انتظر الجميع هذ و القلق في أعينهم، و إذا بالعقاد ينظر إلى الأرض و ترتسم على وجهه كل معانى الحزن ثم يقول: لماذا كل هذا يا ابنتى إن الحياه لا تستحق منك هذا، انك ما زلت شابة و أمامك الحياه كلها، فلماذا الاكتئاب إذن، إن تجربتك هذه يمكن أن تحدث لأى احد، فاستغرب الجميع و قال أي تجربة يا أستاذ؟ إنها زميلة لنا وإنك لا تعرفها حتى إنها أول مرة تزور صالونك، و إنها كانت لمدة عام منصرم في الهند مع والدها الذى يعمل بسفارتنا هناك، فقال العقاد : إني اعرف أنها أول مرة تأتى إلينا، و توجه مرة أخرى إلى الفتاه و قال أنا اقدر ما تشعرين به، و لكن يجب أن تعلمي أن تلك مجرد تجربة كما قلت لك، انك عشت في الهند لعام، و رأيت الرجل الهندي، و قارنته بما حدث لك، إن زواجك من رجل آفاق أو خائن، لا يعنى أن كل الرجال كذلك، بل إن التجربة هي ثروة يجب أن تحمدي الله عليها، و ستقولين لي: و الثكل؟ نعم انى اعرف أن أصعب إحساس في الدنيا أن تفقد ام ابنها، و ليس معنى انك فقدت ولديك الاثنين، أن هذه نهاية العالم، إن الله وضعك في محنة لكى يري ما هو ردك، فإن أحسنت الرد، فسيكون لكى حسن الجزاء .. وبعد تلك الكلمات هال الجميع لقول العقاد، و أخذت البنت تبكى بحرقة و قالوا كل التلامذة أهذا حدث فعلا و سئلوا زميلتهم ان كان هذا حدث حقا لكنها لم تجبهم واستمرت في بكائها، و حينها قال العقاد للتلامذة اتركوها تبكى، فسألوه التلاميذ أهذا حدث و ان

كان فكيف عرفت يا أستاذ؟! فجاوبهم العقاد: إن في اليد اليسرى للفتاه، يوجد أثر غائر مكان خاتم الزواج، و إن في وجهها و تحت أذنيها بعض العلامات التي لا تأتى للمرأة إلا بعد ولادة متعسرة لتوأم، و إن تحت عينها سواد يدل على البكاء ،و في عينها و قولها حزن، وانتم قدمتوها لي على أنها آنسة فعرفت أن أطفالها ماتوا و انتم لا تعلمون شيئا عن أمر زواجها وطلاقها و موت رضيعيها!

تعلمت من العقاد احترام الوقت، وأن احترام الوقت يعني احترام العمل والأشخاص، ففي الأربعينات من القرن الماضي جاء إليه وفد من وزير ثقافة لأحد دول شرق آسيا المسلمة، يطلب منه ترجمة العبقريات إلى الأوردية و لغات أخرى نظير مبلغ ٥ آلاف جنيه مصري (فى ذلك الوقت مثل ذلك المبلغ كان كافيا لشراء ٥٠٠ فدان زراعي) فوافق العقاد و قرروا أن يمضوا العقود في بيته فى موعد محدد، فعندما جاء الموعد، لبس العقاد و انتظر مجيئهم فتأخروا، فجلس إلى كرسي صالونه، و نظر إلى ساعة الحائط، و انتظر خمس دقائق فلم يأتوا، فدخل و غير ملابسه و استعد للقراءة و بينما هو يغير ملابسه، إذا بهم يصلون بعد تأخرهم عشر دقائق، فبعث إليهم بسكرتيره قائلا لهم: العقاد لن يقابلكم و يقول لكم: احترموا مواعيدكم، و نه لا يستطيع أن يجعل أناسا مثلكم يقومون بترجمة كتبه.

تعلمت من العقاد عفة نفسه ، مهما زاد الفقر، وساء الحال، فقد كان ينوى و هو على فراش الموت إن أمد الله في عمره أن يفسر القرآن الكريم بأسلوب عصري يتماشى مع التفاسير القديمة و بمنطلق فكر أهل السنة، و فسر منه سورة الرحمن في جلسة خاصة مع تلاميذه، حيث كان راقدا على فراشه و عندما عرف طه حسين هذا الأمر، فرح و دعا الله أن يطيل عمره، حتى يقرأ تفسير القرآن بقلم العقاد، و قال إنه عاش مختلف مع العقاد في كل شيء، لكنه لا ينكر فضله و تفوقه في اللغة، و عندما سمع وزير الثقافة آنذاك بتفسير العقاد قال

لأنيس منصور: قل لأستاذك أن يبدأ بالتفسير سورة فسورة، و إننا سوف ننشره على حساب الحكومة، فقال له أنيس منصور ما عجب له الوزير أشد العجب، حيث قال إن الأستاذ لا يملك الكثير من الأموال ليصرف على علاجه، فاعمل خير و أرسل له معي مثل مقدم على ما سوف يفسره من القرآن، و إننا سوف نقدم له هذا المبلغ على انه نظير كتاباته حتى لا يرفضه، فوافق الوزير ، و ذهب للعقاد ليبشره، فابتسم له العقاد و وافق، لكنه صمم أن يوقع له على أنه أخذ المبلغ و عندما كتب أنيس الورقة ليوقع عليها الأستاذ، فإذا القلم يهتز بين يده و يقع، فيهال أنيس منصور لهذا الأمر، و يتغير وجه العقاد و يقول له : (أنا لا استطيع أن أمسك قلمي، فالآن أعلن وفاه العقاد !!)

و عندما عرف الوزير بالأمر و أن العقاد لم يرض أن يأخذ المال، حدث الرئيس في هذا فقال له عبدالناصر، إن العقاد من علامات مصر، فاذهب له و اترك له الأموال في بيته و هو غافل حتى لا يرفض، فذهب له الوزير لزيارته و ترك له المبلغ تحت غطاء الفراش، و تحرك العقاد على سريره فوقع المبلغ على الأرض، فنادى على سكرتيره و قال له: الحق الوزير و قل له: إن العقاد لا يقبل الصدقة و أن الله حرمها عليه و على أجداده.!

تعلمت من العقاد عدم الخوف والثبات على المواقف و صرامته و شجاعته في الحق، ففي عهد الملك فاروق الأول طلب منه في ذكرى الملك فؤاد أن يكتب قصيد رثاء عن الملك وكان فاروق يقصد بهذه الفعلة إذلالا للعقاد، حيث قال في نفسه انك حبيس أبي و ستمجده في قصيدة بأمر منى، فجأ رد العقاد صاعقة للملك حيث قال: أيها الملك أنا على أتم استعداد أن اكتب قصيدة في والدك رحمه الله، و مستعد أن ألقيها بنفسي على مشاهد الشعب، لكنها لن تكون رثاء فإنها ستكون مزيدًا من الهجاء.!

تعلمت من العقاد أن الكتب أثمن من المال، بل أثمن حتى من كثير من لوازم الحياة الضرورية، لأن الكتاب لا يقل أهمية وضرورة عن غيره من هذه الضروريات، وهو الدرس الذي علمناه إياه في صغره قبل أن يؤمن به في كبره، فلم يكن مصروف العقاد في صغره، يزيد على خمسة مليمات في اليوم، أي خمسة قروش في الأسبوع يتسلمها من والده كل يوم خميس، لم يكن يشتري بها مأكولا أو فاكهة كما يفعل أصحابه، أو يذهب بها إلى ملعب البهلوان إن زارت مدينهم في أوقات زيارتها، وإذا تجمع لديه ثمن الكتاب اشتراه لساعته، ولم يتردد أو يعطي العطار قرشين بعد قرشين، حتى يتم الثمن المطلوب، وبهذه الطريقة استطاع العقاد أن يقرأ العقد الفريد، وثمرات الأوراق والمستطرف، والكشكول والمخلاة، ومقامات الحريري وبعض الدواوين، ولم تكلفه هذه المكتبة التي اشتراها في صباه أقل من جنيه واحد.! ولكن هذه الكتب التي اشتراها، لم تكن هي كل ما قرأه في فترة التلمذة وما بعدها، وإنما كانت له طرقه إلى كتب أخرى غير طريق الشراء، حيث كان يقرأ في الكتب التي كان أبوه يقرأ فيها.

تعلمت من العقاد السمو في الإنسانية والإحساس بالآخرين والأنين للمعذبين، والرقة للضعفاء والمبتلين، وأريد هنا أن أثبت شيئا لم يكن مثبوتًا، ولعله جديد وغريب على العقول والآذان والأذهان، أريد أن أجلي الغبار عن سمة تعلمتها من العقاد وهي صفة الإحساس والرقة والمشاعر في رجل ظلمه الناس وظنوه جبارًا عنيفًا قاسياً جافاً.! ظنوا عنه وفيه أنه لا مكان للقلب والعاطفة في نفسه ووجدانه، لأن الذي سيطر عليه إنما هو المنطق والتفكير، فهذه حياته يقضيها في جد صارم، لا تفتر شفتاه ببسمة أو ضحكة واحدة إلا بعد استغفار وأوبة.!

أما هو فقد أقسم بأن هذا الذي يراه الناس إنما هو رجل لا يعرفه ولم يره ولم يعش معه لحظة ولم يلتق به في طريق، بل إنه كما يقرر أن نقيض ذلك هو الصواب، فهو رجل مفرط في التواضع ومفرط في الرحمة واللين، رجل لا تلفت لحظة واحدة من ليله أو نهاره من سلطان القلب والعاطفة.. إنه العقاد الحساس الذي لم يكن يدرك الناس أنه كان قمة في هذا الميدان.

كانت دموع العقاد قريبة من خديه فما أن يرى موقفا مؤثرًا حتى تنهمر الدموع تأثرًا وإشفاقاً ويدل هذا على قوة مشاعره وتدفق أحاسيسه ورقته العميقة، كما يدل في نفس الوقت على القوة والرجولة الحقيقية، فليس البكاء للرجال عارا يشانون عليه، وإنما هو سمة تزينهم حينما يتسمون بالمشاعر، ويعلنون عن خصوبتها في أنفسهم يقول الأستاذ (محمود الطناحي): "كان العقاد شديد الحساسية سريع البكاء، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء."

فحينما كان مسجونًا بتهمة العيب في الذات الملكية، وقع نظره يومًا على شرطي يهوي بسوطه على ظهر سجين، ثم ينبثق الدم من ظهر المسكين، فعاد العقاد على السجن باكياً، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه، واستمرت أنّات الرجل تدوي في أذنه، ولم يرحم خياله من أن ذلك الرجل قد أتى ذنبًا استحق عليه العذاب.!

يقول العقاد: "لا أصبر على منظر مؤلم أو شكاية ضعيف"

وحينما كان في السجن رجى الطبيب أن يختار له وقتًا للرياضة، غير الوقت الذي تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين، فدهش الطبيب لطلبه، وظن أن ما يسمع أعجوبة من الأعاجيب وقال له: حقيقة ما كنت أظن أو أتوقع أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد الجبار.

تعلمت من العقاد قمة الذوق والإحساس، فقد كان يخشى أن يجرح شخصًا بكلمة أو لفظاً يؤذي مشاعره.. حدث مرة أن التقى بأحد أصدقائه، وهو في طريقة إلى إحدى دور السينما، وبينما كان صديقه واقفًا في الطابور الطويل أمام شباك التذاكر، فإذا العقاد يحييه ويقول له: مالك هكذا متأخراً؟ وبعد أن دخل وجلس دقيقتين، خرج إلى صديقه ليصحح ما كان لا يحتاج إلى تصحيح من عباراته، إذ قال له: أقصد أنت متأخر في ترتيب الواقفين أمام شباك التذاكر فقط، أما كلمة متأخر على إطلاقها فلا يمكن أن تطبق عليك"

تعلمت من العقاد معنى النبل والشهامة وأخلاق الفرسان، لقد كانت هناك مواقف مبهرة بينت معدنه العظيم وسمو أخلاقه، وأظهرت بجلاء كيف يغلب الإنسان الشريف نفسه أن تأتي بما تخجل منه مروءته، ولقد استطاع الأستاذ العقاد أن يكون واحداً من هؤلاء، حينما كانت المعركة شديدة بينه وبين الرافعي، وكانا يكيلان لبعضهما قذائف مدوية من التقريع والنقد اللاذع، ويرحل الرافعي مبكراً إلى رضوان ربه ، وهنا يسكت العقاد عن أي شيء يمس الرافعي، ولا يذكر أو يكتب عنه شيئاً، أو يُشر إليه بسوء، وتلك ميزة خلقية عرف بها العقاد، حتى حينما أقدم بعض تلامذته وأشعلوا المعركة من جديد، وهاج عليهم تلامذة الرافعي مدافعين منافحين بمقالات ملهبة ساخنة، ظل العقاد صامتاً لا يتكلم.! حتى استطاع الأستاذ الزيات أن يأخذ منه حديثاً شفوياً، أخبره فيه بتقدير الرافعي له، وأنه أي الرافعي، يأخذ على العقاد محاولة انتقاصه، فرد عليه العقاد بأنه لم ينتقص الرافعي كأديب، وأنه اعترف بمقدرته الأدبية في بعض ما كتب عنه، لقد مات الرافعي وصار في دنيا العدم، فعف القلم الشريف أن يهيل التراب على خصمه، أو ينتقصه بحرف من مداده، لأنه غير موجود، ولن يكون موجوداً ليدافع عن نفسه ويرد اتهامات خصمه.!"[٤]

تعلمت من العقاد الاعتداد بالكرامة، وعدم قبول أي إشارة بالإهانة، العقاد رحمه الله قد بلغت به الحساسية مبلغها، كان الرجل حساساً تجاه نفسه، فلا يقبل لها إهانة أو ازدراء مهما

[٣] -العقاد في معاركه الأدبية لسامح كريم
[٤] - الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن-د. محمد رجب البيومي

كان ضئيلاً يسيراً، أو حتى بمجرد التلميح والتعريض، وإذا ما أراد أحد أن ينال من العقاد ويثير غضبه، فعليه أن يقلل من ذاته، ليفاجأ بعاصفة مدوية وكِسفاً من الغضب تتساقط عليه من السماء، ولا يلومن بعدها إلا نفسه، إنها كرامة العقاد التي إذا أردت أن تهلك نفسك، فما عليك إلا أن تمسها.

يحكي الأستاذ أنيس منصور في كتابة (عاشوا حياتي) أن أحد الفلاسفة الفرنسيين زاروا مصر فلما علمت بنبأ وصوله أجريت معه حواراً صحفياً وكان مما سألته فيه: هل تعرف العقاد؟ فأجاب الرجل: لا. وغاب عني أن هذا السؤال وهذه الإجابة قد تغضب العقاد غضباً عنيفاً، وهو ما حدث حينما نشر اللقاء وقرأه العقاد، الذي أتبعه بمقال كتب فيه:

"هب أن الشمس طالعة وجئت إلى أعمى وسألته هل ترى الشمس؟ فقال: لا أراها.. فهل معنى ذلك أنها غير طالعة؟ لا.. إنها طالعة ولكنه هو أعمى.."

وفي عام ١٩٣٣م كان موقفه الثائر مع النحاس باشا ، فالنحاس هو زعيم حزب الوفد الذي ينتمي إليه العقاد .. حيث قامت وزارة (توفيق نسيم) فأيدها مصطفى النحاس وهاجمها العقاد، فاستدعى مصطفى النحاس باشا العقاد لمقابلته بمنزله بالإسكندرية ، ووصل العقاد وكان معه محمد طاهر الجبلاوي.. وعند المقابلة كان هذا الحوار:

مصطفى النحاس : لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ.. يا عقاد؟

العقاد : لأنها انحرفت عن الطريق السوي وتماطل في إعادة الدستور، وتعمل لصالح الإنجليز.

النحاس : ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة..

العقاد : لن أقف وقفة الإغضاء عن مساوئ الوزارة..

النحاس: أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد.

العقاد: أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك، ولكنني كاتب الشرق بالحق الإلهي.

النحاس: إن الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها.

العقاد: لن تنتهي برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة.

مصطفى صادق الرافعي

عملني الرافعي أن الحكم على الناس لا يكون أبدًا في الاعتداد بهيئتهم وما يظهرون به من مظاهر بين الناس، هناك أناس لا تدل هيأتهم على مكانتهم أو علمهم أو عبقريتهم، وحينما تراهم ربما تصفهم بالهلافيت إن كنت من أصحاب المظاهر، لكن بمجرد ما أن تحادثهم، حتى تنهار نظرتك وتدرك على جناح السرعة أنك ممن يقال عنهم وفيهم: إنه الأعمى المبصر! ولعل الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، قد لفت إلى هذا المعنى حينما قال: (رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه)

ولله در القائل:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ** وفي أثوابه أسدٌ هصورُ

وكذلك كان من العظماء الكبار من كان لديه نفس الصورة، فقد وصف التلميذ محمد سعيد العريان أديب العربية الأكبر (مصطفى صادق الرافعي) بقوله: (كان الرافعي كبعض من ترى من الناس، فلم يكن الناظر حينما ينظر إليه ليلمح له امتيازًا في الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته! بل لقد يشك الناظر إلى وجهه في أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام)

علمني الرافعي أن أعطي الكتابة مقامها وقيمتها، وأن القلم حينما أمسك به، لابد أن يكون كل شيء مسخر له موهوب له، فلا ينازعه في الفكر والنفس شيء آخر يمكن أن يفسد عليه رحلته، تعلمت من الرافعي أن للكتابة قدسية وأهمية وأنها عمل عظيم يجب التعب عليه والإجهاد فيه حتى يخرج القلم أحسن ما لديه، وأبهى ما في نفس الكاتب.

يقول العريان في وصفه: "إن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه، حتى يخلي له فكره أيامًا وليالي يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط؛ ثم يتهيأ للكتابة، وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب.. كان يُجهد نفسه في الكتابة، ويحمل من همها ما يحمل، وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه، أو

يشعوذ عليهم، ليملأ فراغًا من صحيفته يريد أن يمتلئ؛ على أنه أحيانًا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها، أو يفرغ له باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، لكنك كنت تجد عليها طابعه، وتعرف أنها له ولو لم يكن عليها اسمه"

تعلمت من الرافعي حب اللغة العربية، وليس هذا الحب والتقدير مجرد عاطفة، بل حب هوية، وحب أصالة، وأن هذه اللغة تعبر عن كياننا ووجودنا وأنها سبيل العزة والفخار، وأن التفريط فيها طريق للضياع والخذلان

يقول رحمه الله في وحي القلم: "ما ذلَّت لغة شعب إلا ذَلَّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذَهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمِر لغته فرضًا على الأمة المستعمَرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عمل واحد؛ أما الأول: فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تَبَع"

تعلمت من الرافعي حب التراث، والإيمان به في خلق أديب مكين عظيم، وأن هجر التراث يورث جهالة عظيمة، فمن نصائحه لأبي رية قوله: "فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتباً حتى يقطع هذا العمر في الدرس وطلب الكتابة، فإذا أوصيتك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة الكشاف (تفسير الزمخشري). ثم إدمان النظر في كتاب من كتب كالبخاري أو غيره ثم النفَس في قراءة آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة واليتيمة والأدب الصغير).. ثم رسائل الجاحظ، وكتاب البخلاء، ثم نهج البلاغة ، ثم إطالة النظر في كتاب الصناعتين للعسكري والمثل السائر لابن الأثير ثم الإكثار من مراجعة أساس البلاغة للزمخشري. فإن نالت يدك مع ذلك كتاب الأغاني أو أجزاء منه والعقد الفريد، وتاريخ الطبري فقد تمت لك كتب الأسلوب البليغ."

تعلمت من الرافعي أن الغيرة على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد، والذي ربما يتطور

للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة، وسباق راقي، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا، سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقًا.. فلماذا لا يستفيد الكاتب من هذه العملية النفسية، التي تدفعه للأمام في ميدان الكتابة؟

كان (الرافعي) رحمه الله في بداية حياته يقول الشعر، ويرى نفسه ندا لحافظ إبراهيم، ويوازن بين حاله وحاله، ويضع في قرارة نفسه، أن لديه القدرة أن يبلغ مبلغه، فلا يكاد حافظ يخطو خطوة، حتى يقضى الرافعي خطوة مثلها، فلما تفوق عليه حافظ بالشهرة والجاه والأنصار، وعلاقته بالبارودي، ومكانته من الإمام محمد عبده، راح الرافعي يجد الهمة، حتى ينال ما نال حافظ، ويكمل النقص الذي تفوق عليه فيه، فأقام صلته بالبارودي، ونشر في الصحف، وصارت له علاقة عظيمة بالأستاذ الإمام، وأصبح اسمه يتردد في الصحف.

كان الرافعي في الثالثة والعشرين من عمره، فإذا بحافظ ينشر ديوانه، ويقدم له بمقدمة أدبية بليغة، كانت يومها حديث الأدباء، الذين استقبلوه استقبالاً جيدًا، وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، فلما رأى الرافعي ذلك، غار غيرة شديدة، وعقد العزم على إصدار ديوان له، ولم يكتف بهذا بل رأى أن يصدره بمقدمة كتلك التي صدر بها حافظ ديوانه.

ووصف العريان هذه الغيرة بقوله: "كانت بينه وبين حافظ منافسة، لكن حافظ كان يتمتع بالشهرة والجاه والحظوة عند الشعب، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته على الكفاح، وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة"

ولم ينثن الرافعي عن طريقه واهتمامه بالشعر، فانطلق حتى أصدر الجزء الثاني من ديوانه ثم الجزء الثالث، حتى تألق نجمه، وبرز بين الشعراء المعدودين، كما لقي الحفاوة من الأدباء، بما لم يلقه إلا القليلين من أدباء هذه الأمة، حتى أن الأستاذ الإمام محمد عبده قال فيه قوله الشهير: (أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل، وأن يقيمك في

الأواخر مقام حسان في الأوائل) وقال عنه الزعيم مصطفى كامل: (سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي، قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان) وظل كذلك حتى عام (١٩١١م) فانحرف عن مسار الشعر إلى مسار الأدب، ليلمع في سمائه، ويكون من زعمائه ورواده.

علمني الرافعي كيف أن الأب قدوة حسنة لأبنائه، وأن صلاح هذا الأب لابد أن يخلف أبناء بررة مهتدين مصلحين، وأن هذا الصلاح ينطبع في ذهن الأبناء فيتذكرونه طوال حياتهم ويتأثرون به ويرشدون بصفاته كقدوة حسنة أمامهم، يقول الرافعي: "كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظًا وجودة بأحكام القراءة؛ ونحن يومئذ في مدينة "دمنهور" عاصمة البحيرة؛ وكان أبي -رحمه الله- كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعوّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحني في ركوعه؛ ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجد بين يدي ربه؛ ليدرك معنى الجلال الأعظم، وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشري في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة.. وذهبت ليلة فبتُّ عند أبي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته؛ فلما كان السحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد؛ أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد؛ أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد؛ أنت زين السموات

والأرض، ولك الحمد؛ أنت قيّام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن؛ أنت الحق ومنك الحق.. إلى آخر الدعاء.

ثم يقول الرافعي عن نفسه وما شهد لها من التأثر بحال الوالد الصالح: وسمعنا القرآن غضًا طريًا كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه، واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور!

عملني الرافعي أن البيئة المثقفة لها تأثير كبير في إيجاد مثقف عظيم، وأن اهتمام الوالد بالكتب والعلم، يخلق نفس الهمة في نفس والده حينما يريد أن يقلده ويحاكيه ويسير على دربه، فماذا تتنظر ممن حفظ القرآن وجوده قبل أن يبلغ العاشرة، وهو يجد نفسه في منزل كريم تملأ إحدى غرفه مكتبة حافلة بروائع الآثار في الفقه والتاريخ والأدب، ثم يجد زوار والده يؤمون المنزل كل ليلة ليتسامروا في شؤون الفقه والفتيا والتاريخ الإسلامي، والوالد يتردد بين الآونة والآونة إلى حجرة المكتبة ليحمل منها مرجعاً يكون صاحب المنطق الفصل في الحوار، ألا يتمنى في أعماق أعماقه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يتناقشون في أمور الدين، ألا يتمنى أن يرزق الفهم البصير ليكب على هذه المائدة الحافلة قراءة ودرساً واستظهاراً؟ ألا يتهيأ له أمل أن يكون مؤلفاً داعياً، يكتب المصنفات الحافلة، ويتردد اسمه كما تتردد أسماء من يحتفظ والده بمؤلفاتهم الذائعة! كل ذلك كان يحتدم في نفس الناشئ.

علمني الرافعي أن العقبات في الحياة لا توقف النهوض، وأن محطات اليأس والإحباط لا يمكن أن تُسلم النفس إلى الخمول والبلادة، بل علمني معنى الإرادة العالية وسط العقبات والمحن، لقد نال الرافعي الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات، ثم فاجأه مرض قاس عطل لديه حاسة السمع بحيث لا يستطيع الانتقال إلى المرحلة الثانوية زملائه الذين صاحبهم أربع سنوات! كان مصطفى على أبواب السابعة عشرة من عمره حين داهمته هذه العلة الفادحة! ولو كان طالباً خامل الموهبة، قليل الهمة، ضعيف الإرادة، لانسحب من الميدان

الدراسي إلى حيث يجد وظيفة مناسبة هيأها له ذووه في مرفق كتابي بالمحكمة الشرعية في طلخا، فقد وجد الراتب المناسب، والعمل المريح، وما عليه إلا أن يستريح من عناء التحصيل الدراسي، ليأخذ بناء أسرة جديدة كنظرائه من الموظفين!! لو كان الناشئ إنساناً ضعيف الهمة خامل الإرادة لآثر الراحة، واكتفى بما أتيح له من عمل. ولكن الذي وجهه إلى حفظ القرآن، ودراسة الحديث، وتصفح تاريخ الإسلام، قد قرر له أن يتفرغ إلى إكمال دراسته الدينية في مكتبة أبيه، فأمامه، عشرات الكتب الحافلة في مجالات الدين والأدب والتاريخ ، وأمامه الفراغ المتسع ليمتلئ من هذا الغذاء المستطاب، لا جرم قد شعر الشاب الناهض بغصة في صدره إذ حيل بينه وبين التعليم الثانوي ولكن المدرسة ليست وحدها باب الثقافة الفريد، فالكتب أكبر وسائل هذه الثقافة، وسيأخذ منها ما يروق مشربه، ويوافق منحاه، وهو حينئذ أكثر انطلاقاً وأشد حرية من طالب التعليم الثانوي، إن زميله في مقاعد الدرس مكلف بمواد قد يجد المشقة في تحصيلها، والرغبة عن اكتناهها، ولكنه ملزم بأداء الامتحان في مسائلها، وعليه أن يخضع رغبته لرغبات الجدول الدراسي أما مصطفى فحر مطلق يعرض الكتب الحافلة ليختار ما يشاء، وليدع ما يشاء.

تعلمت من الرافعي معنى الوفاء للمعلم والأستاذ مهما بلغت رتبتي وتفوقت مهنتي، يحكي تلميذه وصديقه العريان صورة وإطلالة من هذا الوفاء في حياة الرافعي فيقول : وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعي وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبني مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم ـ وما أكثر ما كان يصحبني إليه إذا هبط القاهرة ـ وجلس و جلست معه في جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للرافعي حديث محدثه كتابة في ورقة ، وإنا لكذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب في مساربه ، والجمع حولنا مرهف الآذان يسمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، وانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل ، بدو من طون و جسامته واكتمال عمله كأنما يطل علينا من نافذة . . . وإذا الرافعي يطأطئ له وينحني يهم أن يتقبل يده ؛ ثم عاد إلى

مجلسه قال على يقول في همين : « هذا أستاذي مهدى خليل ... ، وكان في صوته رنه هي أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أيه يسر إليه ... ومضى الأسان مهدى غير عانى ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذي نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم .

علمني الرافعي أن المكتبة في البيت هي الكنز الذي يمكن أن يوجد عقلا جبارا، ويمكن بوجودها أن تفتح الطريق أمام الناشئ ليكون شيئا عظيما وعبقريا ملهما، يمكنها أن تكون سلوة لليائس والمريض، وتحول هذه الطاقة السلبية في نفسه إلى طاقة إيجابية عظيمة، تقوده ليعوض ما اعتراه من نقص وعيب، وقد كان لأبي الرافعي مكتبة حائلة تجمع أشتاتاً نوادر كتب الفقه والدين و العربية فأكب عليها إكباب النهم الطعام الذي يشتهيه فما مضى حتى استوعبها وأحاط بكل فيها وراح يطلب المزيد.. وكان له من علته سبب يباعد وبين الناس فما يجد ولا راحة في مجالسة أحد، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنه، وكان يحس في نفسه نقصاً ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال في ناحية. وكان يعجزه يسمع، فراح يتلمس أسباب القدرة على أن يتحدث. وكان مشتاقا إلى السمع ليعرف دي الناس، فمضى يتلمس المعرفة في قراءة أخبار الناس، وفاتته لذه السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة، ليجد لذة المتحدث حين يتحدث، وقال لنفسه إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعوني فلتسمعوا مني.

وبذلك اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والاطلاع، وكانت علته خيرا عليه وبركة، وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافد العقل رأس هذا الفتى النحيل الضاوي الجسد الذي هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديبا من أدباء العربية في غذ.

عملني الرافعي أن الكتاب في حياته كان كل هيامه، في حله وترحاله، في غدوه ورواحه، في راحته وشغله في نشاطه وسكونه، فقد كان إذا زاره زائر في مكتبه، جلس قليلا بحييه ويستمع لما يقوله ، ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً ما بين يديه ويقول لمحدثه « : « تعال نقرأ ...

، وتعال تقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عينى محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة ... وفى القهوة ، وفى القطار ، وفي الديوان، لاتجد الرافعي وحده إلا وفى يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الإياب (ملازم) من كتاب أي كتاب ليقرأها في الطريق، وفي القطار طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الإمام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد.

عملني الرافعي أن أكون شهما في الحياة، رجلا ذو مروءة في أخلاقي ومواقفي، وهذا ما تجلى في حياته عبر علاقته بزملائه في العمل، من موظفي المحكمة الذين يشركونه في عمله، نبيلا كريم الخلق إلى حد بعيد، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيته مرة في صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى وزارة العدل ثلاثة أشهر أو أكثر، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى، وما ضاقت به أخلاق الرافعي، على حين لم يكن على الرافعي في هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد، وما كانت إلا من أخطاء زملائه في المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أُدر منهم على الخلاص منه.

عملني الرافعي الاعتداد بالنفس، والحفاظ على كرامتها، وعدم قبولها لأي موقف أو ملاينتها لأي شخص يمكن أن ينال منها، أو يضعه الحال معه في موضوع استصغار، لقد كن الرافعي كبير النفس، ولا يقبل دومًا إلا أن يكون كبيرًا وعظيمًا، لقد كان من مبلغ اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أي نبل، وكان يسرف في ذلك إسرافًا يدعو إلى الشك أحياناً في تواضع الرافعي وكرم خلفه وحسن تصرفه، من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدي عمله في المحكمة ـ وعمله أن يحقق أخطاء الرافعي، كان الرافعي يلزم المفتش أحيانا أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه في حجرته الغاصة بالموظفين، ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف على كرسيه، إلى الطرف الثاني من المكتب.

علمني الرافعي هيامي بتلك اللحظة التي يأتي فيها العزم والوحي للقلم ليكتب، إنه يكتب في أي وقت وتحت أي ظرف مهما كانت الأمور عسيرة غير مرتبة ولا مهيأة فها هو كما نقل عنه قال الأستاذ جورج إبراهيم في قوله: لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه جاء إلى في جلبابه والحر شديد، فحدثني من حديثه، ثم سألني أن أهيئ مكانًا رطبًا يجلس ليكتب المقدمة، فجلس في غرفة الدار، ثم تخفف في لباسه واقتعد البلاط بلا فراش وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة، فحذرته أن تنال رطوبة البلاط مجلسه الطويل، فقال: لا عليك يا جورج إني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي، فينشط رأسي.. ثم استمر في مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه، حتى فرغ من المقدمة ساعات.

عملني الرافعي كيف أن أكون نعم الزوج والراعي لبيتي وأولادي، مهما كان انشغالي وهمي وواجباتي، بل علمني كيف يمكن أن يكون هذا البيت وما فيه من أهله أن يكونوا وقودا يدعم موهبتي ويتحملون أعباءها، ويقدرون صاحبها ويحترمونه، ويدركون أثره وعظمته، ويوفرون له سبيل الرقي والإبداع.. فهو لم يفرط في حقهم حينما هم لم يفرطوا في حقه يوم أن أدركوا سر هذه العظمة، فكان كل منهما مثالا في التقدير بما يدرك من حقوق الآخر، وهو الوصف الجميل والجليل الذي وصفه فيه تلميذه العريان بقوله:" كان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب؛ وما كان منكورًا لأحد من أهله أن الرافعي ليس موظفاً كسائر الموظفين: عمله في الخارج وحسب؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية، فيبيتون له أسباب الهدوء والراحة والاطمنان، كان في بيته كالملك من الحكومة الدستورية: يملك ولا يحكم ، ويعيش في جو من الاحترام والرعاية والطاعة فوق الأحزاب وفوق المنازعات: فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أي شغل أو تشغب على هدوئه و تعكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه، منقطعاً لفنه وعمله الأدبي، فدار كتبه له هو وحده، وطعامه مها في موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممهد في موضعه لساعته، ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعى مضبوط .

على أنه كان إلى ذلك يعرف واحبه لزوجه وأولاده، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلا عالياً من الحب والوفاء، وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعي: إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حبا بحب، ثم لا يمنعه هذا الحب العالي أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ناصحاً برفق حين يحسن الرفق، مؤدباً بعنف، حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان."[٥]

عملني الرافعي أن احترام الزوجة، وأن لهذه الزوجة أمانة وقدسية، بل حرمة تعتد بها النفس إن دهمه شعور من الهوى والحب، فإنه لأمانته وتقديره لها، وشعوره بأن ذلك يهضمها حقوقها، كان لابد له أن يطلعها عما تعترض نفسه من عوارض ذلك الهوى، وهو خبر لا يمكن أبدًا أن تسمع به في دنيا الرجال وعلاقتهم بنسائهن، لكنه كان على أسمى ما يكون بين الرافعي وزوجته، التي لا تقل براعة وإنسانية وتقديرا لنفس زوجها كما فعلت وقدمت هذا المثال.! و إنك لتتعجب كيف لامرأة تقبل أن يصارحها زوجها بأن قلبه صار معلق بغيرها؟! إلا أن تكون زوجة مدركة لأبعاد غائرة من معاني الإنسانية، وتثق في عقلية هذا الزوج، وتتعامل مع الأمر بأنه بلاء أصابه دون إرادته.

كان للرافعي هوًى وغرام، ووقع له في هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة، واحتال على الخلاص فما أجدتْه الحيلة إلا همًّا على همٍّ، وكان حبه أقوى منه، ولكن دينه وأخلاقه كانتْ أقوى من حبه.

وقال لنفسه: «ما أنا وهذا الحدَث الذي يعترض طريقي ويغلبني على إرادتي؟ إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني — والحب عند الرافعي لا يأبى الشركة — وإن لها عليَّ حقًّا ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي! ماذا يكون من أمري وأمرها غدًا أمام الله حين يطلب كلُّ ذي حق حقه؟ أأقول لها: نعم، قد ضيعتُ حقك وأعطيتُ من قلبي الذي لا أملك لمن لا تملك؟ ويلي! إنها الخيانة والإثم والعار!»

[٥] - حياة الرافعي- محمد سعيد العريان

وذهب إلى زوجه فحدَّثها وحدَّثتْه، وأفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه، ثم قال: وأنت يا زوجتي، هل يخفى عليك مكانك مني؟ ولكن ...

واستمعتْ إليه زوجته هادئة مطمئنة.. ثم أذِنَتْ له، وكتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبته التي غلبتْه على قلبه، وقرأتْ زوجته الرسالة وطوتْها وأرسلتْ بها إلى صندوق البريد.

وجاء جواب صاحبته فقرأتْه زوجتُه كما قرأتْ رسالتَه، وصار هذا دأبهما من بعد.. لا ترى زوجته لها حقًّا عليه إلا أن تعرف، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة ما دامتْ زوجته تعرف.!

محمد فريد وجدي

يمكن لنا أن نقول: إننا أمام رجل رائع، صاحب خلق عال وعقلية سامية، ربما نسيه التاريخ، لكننا نعيد للوجود ذكره وسموه وأصالته وعفة نفسه، ونسجل هذه المواقف التي تُحكَى في إباء النفس وعفة الخلق، لتصير مضرب الأمثال وأغنية الأجيال.!

علمني وجدي روعة هذا الكاتب الذي يحترم قلمه، ويدرك مسؤولية كلمته، ويربط بين نفسه وقلمه، فإذا كانت شريفة نزيهة، كان قلمه شريفًا نزيهًا، وإذا كانت سافلة متدنية، كان قلمه كذلك.

علمني وجدي معنى وصورة الكاتب الذي يتمسك بمبادئه وأخلاقه، ليس أمام العواصف والضغوط والتهديدات فقط، ولكن أمام الإغراءات المادية التي تعرض عليه، وتستغل فقره ودينه وجوعه وحاجته، ثم هو أمامها ولا يُواجهها إلا بكل صلابة وإباء وشمم، راسخًا صابرًا مجاهدًا محتسبًا.

لقد قدمت بلادنا بكل فخر مثل هذه النماذج الرائعة من الكتاب الأبطال، أصحاب الأقلام الشريفة الذين لم يسل لعابهم للمال، أو ترضخ نفوسهم لبريقه، أمام فقرها وقلة حيلتها، تماما

كما نرى اليوم من كتاب كثيرين، لا يبيعون مبادئهم فقط من أجل المال، وإنما يبيعون شرفهم ودينهم، فما أبعن البون بين الفريقين وبين القلمين.!

كان وجدي رحمه الله نموذجًا للإنسان الراقي والقلم المثالي الذي يُعلي القيم فوق كل شيء، ويعد الالتزام بالمبادئ أغلى ما في الحياة وأثمنها، والتي تهون وترخص إن تجردت من هذه المبادئ.

هل تصدقني لو قلت لك: إن فريد وجدي علمني كيف يمكن للإنسان بالإرادة وصدق العزم، أن يأتي بما يشبه الخوارق؟ بل يمكن له أن يكون عملاقا كبيرًا، ومنجزا عظيما؟ وهو ما حدث حينما قام وحده بتأليف هذه الموسوعة الكبيرة الضخمة ذائعة الصيت، (دائرة معارف القرن العشرين) ليكون بهذا الجهد وهذا العمل، أعجوبة زمانه وهو ما دعا أحد الكتاب في زمنه أن يكتب ليقول منوهًا بهذا لحدث العظيم: «رجل واحد مفرد، يقوم بعمل جاد، يسهر له الليالي، لا ليتلألأ على صدره نيشان، ولا لترفع له رتبة ، أو يقام له حفل تكريم ، والمسؤولون مشغولون بكل شيء عن العلم والأدب، ولا يعرفون عن المؤلف إلا أنه أديب كاتب، على حين تجد المنافق والدساس والمداجي، يقدم على، صاحب (دائرة المعارف) في كل شيء، يقدم عليه بالمال ينصب عليه انصباباً، وبالمقام يرتفع ويعلو، وبالتقديم الذي لا ينتهي عند حد، أما (وجدي) فإنه في عزلة، وإنه مجهول"

عملني وجدي معنى العصامية في أسمى مشاهدها، وأن الإنسان وحده بما ملك من معالم الإرادة ووضح الطريق يمكن أن يحقق الكثير، وإذا كنا نتحدث عن عصامية العقاد، ونشيد بها في كل المحافل، فمن العيب أن نغفل في الحديث عن عصامية وجدي، التي كانت الآية الباهرة، إنها العصامية التي بلغت به إلى ذراري المجد، والتي لم يكن من سبيل إليها في المقام الأول، إلا بإدمان القراءة وعشق الكتب والغرام بالمعرفة، يقول الدكتور محمد رجب البيومي عنه: "رزق نهماً شديداً للمعرفة، جعله لا يكف عن الاطلاع على شتى فنون الدراسة العلمية، وإذا كان قد أصدر مؤلفه العلمي الأول في سن السادسة عشرة .

وإذا جاء هذا المؤلف للناشئ الغض حافلاً بآراء المشاهير من أعلام الشرق والغرب، فإن معنى ذلك أن الصبي الناشئ قد أحس بجذوة البحث تشتعل في أعماقه مذ عرف القراءة والكتابة، وقد عرفهما في المدارس لعدة سنوات، لقد كان والده من كبار الموظفين الحكوميين، انتقل معه حيث عمله في القاهرة، ليتابع المرحلة التالية من دراسته، ووجد الطالب صعاباً تعترضه حين ينتقل من مدرسة تعلم الفرنسية إلى مدرسة أخذ طلابها شوطاً في تعليم الإنكليزية بالمرحلة الأولى التي لم تتهيأ للطالب من قبل، كما يجد من المواد ما لم يسمع به من قبل، ولا يجد منها ما سبق له علمه بالجدول المدرسي بالإسكندرية.

لقد أحضر له والده بعض المدرسين ليأخذ حصصاً في اللغة الإنكليزية، ولكن الطالب كان قد عرف طريقه الذي ارتضاه لنفسه، فأعلن لوالده أنه يريد أن يشتغل بنفسه في التحصيل العلمي دون مدرسة، وقد دهش والده لما يسمعه منه، ولكن عطفه عليه حمله على أن يصغي لوجهة نظره، فقال الابن: إنه الآن يجيد الفرنسية على نحو يسمح له بقراءة كتبها المختلفة، كما أنه يتقن دروس اللغة العربية بحيث تنشر الجرائد ما يرسله إليها، واهمة أنه أستاذ كبير لجودة ما يكتب، ورسالته في الحياة هي خدمة دينه، والدفاع عن هذا الهجوم الكاسح الذي يقرأ أهواله في الكتب الفرنسية التي يطالعها، وقد أخذ للأمر عدته، فهو يقرأ صباح مساء دون عائق"

وإذا كنا نتعجب من وجدي في اختياره لهذا المسار صغيرًا، ومعرفته لطريقه وتحديده لغايته وهو في هذه السن الصغير، فقد أدهشنا في ذات الوقت ما كان من أباه، حينما أصغى إليه واستمع لرغبته، واقتنع بما قال وترك له أن يسير وفق ما يريد من التعلم والتثقف المبني على غير المدارس، وكأن وجدي قد وفق إلى والد يؤمن به ويرى في الأفق ما سيكون لولده فتركه لشأنه دون إجبار ومعارضة على اختيار مساره العلمي.. لقد كان ينشر في الصحف وهو صغير السن، وكانت الصحف تقبل مادته ظنا منها أنها لرجل حكيم مخضرم، كما كانت أولى مؤلفاته وهو في العشرين من عمره.

عملني وجدي معنى أن يكون الكتاب والقراءة طريقًا لعلاج كثير من العلل والشبهات التي يمكن أن تستبد بالعقل والوعي، وأن السبيل إلى إزالتها وراحة القلب منها، لا يكون إلا عبر المكتبة والكتب والقراءة والبحث الجاد، للوصول إلى الحقيقة الغائبة.

كان يقول: " حينما كنت في سن السادسة عشرة من عمره طالبا في المدرسة التجهيزية، وانتقل والدي إلى محافظة دمياط موظفا بالحكومة وما زلنا معه في هذه البلدة، حتى أخذ كبار أهلها وعلماؤها يفدون عليه للترحيب به، فكان يجتمع في دارنا عدد كبير منهم وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية، وجدت فيها مجالاً للبحث والتفكير، غير أني كنت إذا ناقشت أحد العلماء في مسألة تتعلق بالكون أو الخالق أسرع إلى قفل باب المناقشة، وأمرني ألا أخوض في المسائل الدينية، أو أبدي فيها رأياً، فكنت أمتعض من ذلك، وأرى أن فيه حجراً على العقل بلا مسوغ، وأخذت أبحث عن السبب الذي أدى بهم إلى هذا الجمود، وقلت في نفسي لا بد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيماً، ومن هنا تزلزلت عقيدتي، وشرع الشك يتسرب إلى نفسي، حتى صرت لا أرتاح إلى رأي واحد يتضمنه كتاب، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء في إثباتها بما أوتي من قوة الحجة، وسطوع البرهان، وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية، وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس، وأكببت على ذلك عدة سنين، فاكتسبت علماً غزيراً، واتسع أمامي نطاق الحياة، وجال نظري الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله من البحث والدرس، حتى صرت لا أقنع بفكرة دون أن أعنى بتمحيصها ودرسها، معتمداً في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرت بي طول السنين.

وقد أفادني هذا الشك استقلالاً في الفكر، واعتماداً على النفس، ورغبة في استيعاب ما يقع بيدي من الكتب ـ على اختلاف أنواعها – بصبر وجلد، حتى زال الشك عني، وارتاحت نفسي إلى عقيدة من –قراءاتي، كما أفادني ذلك دقة في البحث، وعناية بما أتناوله بالتمحيص دون أن أجد في ذلك مللا» .

عملني فريد وجدي أن المرء كثيرًا ما يكون له من اسمه نصيبًا، فهو فعلا فريد كما أشار العقاد في حديثه عنه فقال:" «لقد عرفنا في عصره طائفة غير قليلة، من حملة الأقلام، ورجال الحياة العامة ، فلم نعرف أحداً منهم يماثله في طابعه الذي تفرد به في حياته الخاصة والعامة، وفي خلقه وتفكيره، وفي معيشته اليومية، أو معيشته الروحية، وأوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعاً: إنه لم يخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المنشود في سيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد، نعم الفريد حتى في لغة الجناس ، لأن اسمه فريد، والفريد حتى في عزلته، لأنه كان في عزلة النساك والرهبان، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم»

عملنا وجدي أن المرء بالجد والعمل والاجتهاد والمثابرة، إذا صاحبته رؤية نافذة، وذوق رفيع، وتجديد واعي، وقصد نبيل، يمكن أن ينجز حدثا عظيما يشار إليه بالبنان، ويكون في مصاف الكبار مرموقًا معدودًا مهمًا، ففي عام (١٩٣٣) م رأت مشيخة الأزهر، أن تحيل رئاسة تحرير مجلتها للكاتب والأديب العبقري النابه (محمد فريد وجدي) وكان اسمها في ذلك الوقت (مجلة نور الإسلام) واستطاع وجدي أن ينتقل بالمجلة نقلة نوعية، بل قيل: إنها في ذلك الوقت صارت تضارع بما اتسعت في نطاقها الفكري كبرى المجلات العلمية في مصر، فأخذت تزاحم المقتطف و(الهلال) و(الرسالة) و(الثقافة) لدى المثقفين الكبار، بعد أن كانوا يعدونها مجلة دينية خاصة بالمعممين، يتحدثون فيها عن مسائل الفقه من فرائض الوضوء والصيام وشروط الزكاة.

علمني وجدي كيف يبعث الأمل في الناشئة من الموهوبين والشاب الواعد الذي يبحث عمن يتبناه ويدعمه ويزكي قدراته، ويفتح الطريق أمام موهبته، وهي رسالة الأديب الكبير، ودوره في خدمة الفكر والأدب، بإنبات الثمار الواعدة في حقوله، ففي أثناء إدارة وجدي لمجلة الأزهر، وعلى قدر ما كان يكتب فيها كبار الكتاب الذين انتدبهم إليها، لم يغفل أبدًا أن يقوم برسالته في تشجيع الأجيال الناشئة، وتحفيز المواهب الشابة، فقد كان بعض طلبة المعاهد الأزهرية في ذلك الوقت، تدفعهم حماستهم الأدبية أو يكتبوا بعض القصص الأدبية،

أو دواوين الشعر المبتدئة، وكانوا يبذلون جهودهم في طباعتها، ثم يرسل أحدهم نسخة مما أنتج إلى مدير تحرير مجلة الأزهر مع ما يرسله إلى كبرى الجرائد والمجلات، فلا يجد اهتمامًا أو صدى إلا بمجلة الأزهر، إذ يقوم الأستاذ وجدي بكتابة صفحة كاملة عن كتيب صغير لمؤلف ناشئ، رأى في قلمه الهش ما يشي بنبوغ مبكر له مستقبله إذا نما وازدهر، فآثر أن يشجعه بمقال عاطف!

وكان يقول في هذا الشأن: "إن تشجيع الطلاب إذا وجد لديهم ما يدل على حسن الاستعداد عمل ضروري لا محيد عنه، فالطالب إذا رأى المجلة تحتفل بأثره الناشئ، واصل البحث كاتبًا والشعر ناظمًا، وأكب على الاطلاع، وقد يكون منه في المستقبل رجل ذو شأن"

علمني فريد وجدي أن النجاح وتحقيق الذات والغايات، يمكن أن تقابلها عاصفة من الأنداد والمنافسين تحركها الغيرة المحمومة والضيق الشديد، بل علمني وجدي أن أقابل كل هذا العنت بالصبر والأناة والتلطف والأدب ووأد الحماس في الانتقام والرد، لقد علمني وجدي أن الأدب منهج عظيم لمعنى الإنسان، لا يجب التفريط في التزامه مهما كانت الدوافع والمغريات، بل علمنا أنه القيمة الباقية في حياة صاحبه وأثره، لقد رحب صاحب المنار (محمد رشيد رضا) بالكتابات الدينية للأستاذ (محمد فريد وجدي) كما زاره في دمياط، وكان يكتب لأصدقائه يُثني عليه، ويرجو له أتم التوفيق، وحينما أصدر وجدي كتابه المدنية في الإسلام، قرظه تقريظًا رائعًا، وقرنه بكتاب رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وكانت صداقة قوية عتيدة، ولكن الغيوم أخذت تتلبد في أفق رشيد، حين أصدر وجدي مجلة الحياة، وكأنه رأى فيها منافسًا قويًا للمنار، رغم أن اتجاه وجدي في تحرير الحياة، مختلف عن توجه رشيد، وإن اتفقا معا في الهدف الأصيل وهو الدفاع عن الإسلام، ونشر تعاليمه.

وكان الأحرى برشيد أن يؤيد صاحبه ويؤازره، بدلا من عدائه الصارخ له، والذي أعلنه حينما أنشأ مدرسة علمية، كان هو أستاذها الأوحد، وإذا به يفرد في صفحات المنار مقالات نارية للهجوم على وجدي، دون أي ذنب قد اقترفه! بل هاجمه لأنه عمل عملا صالحًا يحسب له، وكان لابد أن يحمد عليه، وما أن ألقى وجدي أولى محاضراته عن فلسفة التشريع، في

مدرسته التي أسسها باسم (مدرسة العلوم العالية) وقام بنشرها في جريدة اللواء، حتى ركبت الحمى نفس رشيد، واندفع يخط في المنار تهكمًا صارخًا على الرجل، واتهمه بالجهل والافتراء على الإسلام، والإتيان بأمور لا يعرفها، وأخذ يشهر به، بل نشر في المنار ، مقالا مسهبا من ٢٥ صفحة، يرد فيه على مقال فلسفة التشريع، ورمى الرجل بالإفك والغش وعدم الأمانة، والحق أن رشيد قد انحدر لهوة سحيقة من النقد والإسفاف في الخصومة، وهي منزلة غير معهودة عليه ولا تليق به، خاصة إذا كانت موجهة لزميل كفاح، لقد قال عن الأستاذ وجدي:

إنه لم يتعلم في المدارس، وسقط في التعليم الحكومي.! وليته اقتصر على النقد العلمي، ولم يجرح شخص الرجل، ولكن يبدو أن الغيرة منه ومن فعله، كانت عنيفة شديدة، لم يطق معها صبرًا، أو يتحمل من كبرها شيئًا، وطبيعي أن يثور فريد وجدي، وأن يكتب ردًا يكشف فيه أسباب التجني، وله العذر في ذلك كل العذر ، ولكنه بعد هدوء ثورة الغضب في نفسه، عادت إليه أناته، فكتب في العدد التالي من مجلته الحياة يقول: "ربما كانت هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها، ويجب أن لا تحفظ هذه الملزمة في مؤلفاتنا، ونرجو من حضرات القراء رفعها عنها، هدانا الله لخير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الأقلام."[٦]

وفي موقف آخر ومع ذات الصديق، يعلمنا نكران الذات، وعدم الانتصار للنفس إن وقع عليها ما يؤذيها ويهين قدرها، فقد حكي عنه أنه كان يتناقش مع السيد محمد رشيد رضا في مسألة، ولما احتدم الجدال صاح فيه السيد رضا قائلاً: أنت جاهل؛ فسكت رحمه الله ولم يرد وانتهى الموقف، ولما سأله أحد تلاميذه قال: أنا والشيخ رشيد رضا في خندق واحد، ولنا فكرٌ مشترك، وإذا كنا ننادي بالرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما لدينا؛ فإن الرفق مع أصحاب الاتجاه الواحد أدعى وأولى.

والمرء حيال هذا الموقف يتعجب لصنيع الإمام محمد رشيد رضا، إذ كيف له أن يكون منه هذا الموقف الذي لا يقع فيه إلا الجهلاء أو ضعاف النفوس؟ لكنه وهو الإمام الكبير، كان

[٦] - راجع كتاب محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، للدكتور محمد رجب البيومي

موقفه غريبًا غير سوي، لكنها نوازع الغيرة، قد تحمل النفوس على ما لا تطيقه عزائمها، إن كانت من ذوي العزائم.!

علمنا فريد وجدي معنى المفكر والكاتب المهذب المؤدب، الذي يسعى للحقيقة وحدها، ولا يهتم لمجده الشخصي وانتصاره الذاتي، وهو الذي في مقدرته ذلك، وهذا ما تبدى في طبيعة ردوده ممن كانوا يريدون إثارة المعارك معه، فلم يعطهم فرصة للخصومة، بأخلاقه العالية وردوده الطيبة، وهدوئه وانعدام ثورته، بل علمني معنى أن أقهر خصومي بالأدب، وأعدل مزاجهم العداوني إلى نصابه الهادئ الرزين، ليسيروا معي في مسار الحقيقة وحدها بعيدا عن العداء الشخصي، إن هدوء الأستاذ في نقاشه الفكري كان أحياناً مثار دهشة معارضيه، فقد يبدؤونه بالقول القارص، ويتجنون عليه باختلاق ما لم يقل، ثم يجدون الرد الهادئ الملتمس للأعذار ، فلا يدرون بأي ستار يتوارون.

نعرف جميعاً حماسة الدكتور زكي مبارك، واشتعال حرارته في مصاولاته الأدبية والعلمية، وقد ناقشه الأستاذ وجدي ـ وهو في مرتبه أساتذته ـ ملتزماً سماحته المعهودة، فقابل جمره الحار بماء سلسال عذب، وحار الدكتور في اتجاهه، ولم يسنه إلا الاعتراف بنبله النقدي، في بحث نشره تحت عنوان (النباتيون في باريس): «لقد جربت بنفسي أثر المعيشة النباتية فوجدتها خطرة العواقب، لأنها تحمد جذوة الافتراس في الإنسان، واللحم هو أصل الافتراس، أما النبات فيضطر آكليه إلى الوداعة واللين، ولو شاء القط على نحافته لردع الجمل على ضخامته، لأن القط آكل لحم، والجمل آكل عشب، ولعل هذا هو السر في أن الأستاذ محمد فريد وجدي وهو نباتي كما نعلم، صار من ألين لا يجادل إلا بالتي هي أحسن، ولا نرى في كتابته جملة واحدة تحمل معنى من معاني العنف، وقد جادلته مرات على صفحات (البلاغ)، فكان لطيفاً رقيقاً، أما أنا فكنت أتلطف، وأترقق، والفرق بعيد بين من يرق ويلطف بالطبع ، ومن يتكلف الرفق واللطف» .

علمني وجدي أدب الحوار وأخلاق النقاش، وقد كان مثالا للرقة والرفق واللين مهما احتدم الحوار، وتوهج النقاش، لا ينفكون على طيبتهم ولينهم، لإيمانهم به في نصرة الفكرة

وعرض الحجة، لم يكن كرومر مجرد مستعمر عسكري بغيض، وإنما كان مفكرًا تغريبيًا عمد إلى إثارة الشبهات حول الإسلام وحضارته، ومن ثم انبرى له وقتها بعض الكتاب الكبار، للرد على ترهاته، ومنهم الأستاذ محمد فريد وجدي، الذي عمد في رده إلى اللين والحوار الهادئ، حتى نال إعجاب الزعيم مصطفى كامل، والتقى به محتفيًا في دار اللواء، وأخذ كامل يعبر لوجدي أنه مسرور جدًا من مبادرته بنصرة الدين، وكبت الملحدين، ثم قال له: هذا كله حسن، ولكني أرى في مقدمتك لينًا في اللهجة، لا يصح أن تكون عليه في رد مطاعن على الإسلام، وجهها إليه رجل من غير أبنائه، لا هم له إلا جرح المسلمين، وتشويه سمعتهم.

فرد عليه وجدي بقوله: أليس إلانة القول مع قوة الحجة، خيرًا من الشدة التي ربما تنفره من قراءة البحث كله، فيفوتني الغرض من كتابته، وهذا فرعون قد ادعى الألوهية، وافتأت على الله تعالى، فأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يقول له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، كما أن الله تعالى أمرنا بذلك نصًا فقال: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" وما الذي يضيرني إن ألنت له المقدمة استدراجًا، حتى إذا ما تورط معي في البحث، وأنست روحه مني قصد الحقيقة، اطمأن إلى الموضوع وأشرب قلبه.؟!

إن الرفق واللين هو منطق الحكماء، الذين ينتصرون للفكرة قبل أن ينتصروا لأنفسهم، إنهم أهل الرشد الذين يؤمنون أن القسوة أبدًا لا تولد إلا القسوة ولا تنتج إلا العنف والشطط والنفور.!

عملني وجدي احترام آراء الأخرين، وعم مصادرة رغباتهم حتى ولو كنت قائما عليهم ورئيسا فوقهم، وهذا ما تبدى في شهادة العقاد الذي رأى نفسه محظوظًا لأنه عمل مع هذا الرائد الكبير، وتشرف بالاقتراب منه، حينما أسس صحيفته (الدستور)، ولم يكن العقاد بالرجل الذي يفوته أن يخبرنا بحقيقة هذا العملاق، وسماته الطيبة الأنيقة الفريدة، حينما احتك به وعمل معه.

فكان مما وصفه به: "إنه كان حرًا في فكره، وما خالفته فيه أثناء عملي معه أكثر مما وافقته عليه، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه، كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة، بل كان يخسر الكثير أحرج أوقات الحاجة إلى المال، ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق، ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال.! كانت الدستور لسانًا ثانيًا للحزب الوطني، الذي كان موقفه معروفًا من سعد زغلول، وكنت أؤيد سعدًا وأرد على ناقديه في (الدستور)، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته في هذا الموضوع"

تعلمت من وجدي أن القلم أمانة، وأن هذه الأمانة يجب أن تصاحبه في كل خواطره ورغباته، فمن أجمل ما قرأت من كلامه: (إن الفكر أمانة وصاحب القلم ليس مخيرًا دائمًا فيما يكتب، ولكنه يُفاجَأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه)

علمني فريد وجدي احترام المبادئ واحترام الكلمة، ومهما افتقر الحال وتردت الأوضاع الاقتصادية، فإن ذلك لا يمكن أبدًا أن يجعل المرء يتخلى عن مبادئه وببيع قلمه ويؤجر نفسه لمن يدفع أكثر، إذ لما أخذ أعداءه والمعرضون له يحاربون جريدة الدستور، ويشنون الغارة عليها، ويحرمون على أعضاء الحزب الوطني الذي كان ينتسب إليه أن يقتنوها، ضاقت أحواله المادية وأوشكت الجريدة على الإغلاق، وفي هذه اللحظة وفي تلك الضائقة، عرضت عليه المعونة الكبيرة من جماعة تركيا الفتاة، شريطة أن يكون لسانا عربيا لحركتهم، وأن يرفع من صدر الصحيفة كلمة (لسان حال الجامعة الإسلامية) فرفض هذه المعونة، ورفض أن يبيع نفسه وقلمه إلا بالشروط التي يرتضيها، وفي ذات الوقت كانت هذه المعونات التي يمكن أن تنقذه من هذه الضائقة، وتنقذ الصحيفة من الإغلاق، من شتى الجوانب والجهات، ومنها الحاشية الخديوية، ولكنه كان يرفض معتزا بنفسه وبقلمه أن يكون تابعا إلا لرأيه وفكره ومعتقده.

عملنا وجدي معنى النقد الذاتي ، وكيف تكون له ثماره المرجوة، وعملنا رفض التعصب للحزبية المقيتة، التي ترفض النقد والنصح، معتدة بنفسها، مشيعة لرأيها في الحق والباطل، وقد كان وجدي بهذا سباقا لعصره، ذو رؤية سليمة لقيام الجماعات على أسس سليمة ورؤى قويمة تضمن سلامتها ورقيها وتفوقها، كان يقول في هذا: " إن كوني مع الحزب الوطني أعترف بزعامة مصطفى كامل باشا، لا يمنع أن أنتقد خطبه، وأن أبين للشبيبة موضع الخطأ والصواب فيها على ما يقتضيه واجب الصحافة، هل تمنع الإنكليزي إنكليزيته من انتقاد خطبة لملكة، أو موقف لزعيم حزبه، وإذن ما فائدة التعاون والتناصح والمساعدة على تقويم الآراء وتعديل المنازع، وفي أي مذهب وفي أي قانون يعد الانتقاد رذيلة أو تلونا أو بعدًا عن الواجب؟ وما فائدة إصداري الدستور ، وفي مصر جرائد لا تحصى، وأنا في غنى عن الكسب من جهته، إن كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتبره واجبًا ضروريًا! نحن في عصر ننتقد فيه سياسة سلاطيننا وملوكنا؟ أفلا نستطيع أن ننتقد زملاءنا وأصدقاءنا؟!

علمنا وجدي معنى الوطنية في دفاعه عن وطنه ضد المحتل الغاصب، وضد من يناوئه ويشايعه ويناصره، فقد كان وهو الصحفي صاحب القلم، يقوم بدوره العظيم عبر هذا القلم، ومن خلال هذه المهنة، ليكشف صنائع الاحتلال ومناصروه.

كان وجدي يهاجم من لا يرى في مسلكه السياسي خيراً للأمة، إذ يرى السكوت عن مثله خطأ لا يمكن تبريره، وقد راعه مسلك (الجريدة) التي يقوم على تحريرها (أحمد لطفي السيد) أمام الاحتلال، فهي تهادنه، وتدعو إلى مصالحته ومسالمته، وقد كرر الأستاذ وجدي انتقاده، راجياً أن تعدل الجريدة عن خطتها المناوئة للاستقلال المباشر، ولم يتعد الحقيقة حين ذكر (حزب الأمة) الذي تنطق الجريدة بلسانه ، وممن تتكون؟ وإلى أي غرض يهدف، فقال في مقال له قال فيه:" إن طائفة من الأعيان اجتمعوا وقرروا العمل على تأسيس جريدة حرة مستقلة عن كل سلطة، تجمع إلى علو تحريرها جمال الرواء ، وبهجة الثراء، فتنجذب الأمة من بين مخالب المأجورين والمتحمسين (وهي عبارة (الجريدة) في ذم أنصار الحزب الوطني) وما إليهم، فلم يسعهم إلا أن أوفدوا إلى اللورد كرومر قيصر قصر الدوبارة يكاشفونه

بحقيقة نواياهم، فوجدوا منه كل تشجيع، إذ رأى في ذلك ما يخدم أغراضه ، بعد أن عجز عن إماتة الشعور الوطني لدى المصريين .

وقد قرأ الناس في (الجريدة) مقالات ومباحث، فهل مرت (الجريدة) بذكر الاستقلال؟ هل مست موضوعاً دقيقاً بين المصريين والمحتلين؟ هل ناضلت عن حقوق مصر بلهجة المصري الغيور؟ هل علمت المصريين كيف أن الوطنيين سياج الأمم، ومساك الشعوب؟ لعلنا على باطل من أمرنا، وجاءت (الجريدة) لهدايتنا إلى الحق فيه، فهل سعت في التوفيق بيننا وبين المحتلين؟ هل ناضلتنا في حق ننكره عليهم ن ظلماً؟ إذن ما الجريدة، فلا هي على مشرب الجرائد الوطنية، تعبر عن شعور المصريين، وتمدهم بالدروس المرقية لعواطفهم، ولا هي على هدي الهداة المخالفين فتستحق منا احترام المخالف المخلص»

علمني وجدي أن أنزل الناس منازلهم وأن أقدر أهل الفكر والقلم، حتى ولو كانوا غير مسلمين، فقد مات صاحب جريدة الأهرام (جبرائيل تقلا باشا) فأفرد الأستاذ وجدي صحيفة للثناء عليه بعد رحيله، في مجلة الأزهر، ولكن بعض الذين لا يفهمون سماحة الإسلام، عدوا ذلك موضع نقد، وسارعوا إلى الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الأزهر، يقولون في صخب: إنّ بعض كبار العلماء من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله ، فلا يخصهم الأستاذ وجدي بنعي ضاف، كما فعل مع صاحب (الأهرام).

فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره: أمعك مقال الأستاذ وجدي؟ .

قال : نعم .

قال : هلم فاقرأ

فأخذ الشيخ يتلو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأة من قبل، حتى إذا بلغ القارئ منتصف القول، وهو في قمة انفعاله، قال له الشيخ : سأقرأ أنا، ثم أخذ المجلة، ليتلو في جمال نبرة، وحسن إلقاء قول الأستاذ وجدي: «إنّ الأزهر ومجلته ليشارك الأمة في أساها، ويذكر من فضائله الفقيد الكبير، ما كان يقابل به بحوث حضرات العلماء من الاحترام، ويحلها في أرفع مكانة من الأهرام، ولطالما نشر مقالات في موضوعات علمية بحتة، كان أولى بها

المجلات، ولكنه كان يؤثر أن يكون عوناً للأزهر في أداء رسالته، وفي عهده الجديد، ومما يدل على عنايته بهذه الناحية، أنه عندما ثار جدل بين القائلين بترجمة معاني القرآن، والذاهبين إلى تحريمها، وانتصر صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي للقائلين بالجراز، نشر (الأهرام) بحثه في عدد واحد على طوله، ولم يكن فضيلته شيخاً للأزهر إذ ذاك، فهذه النزعة الشريفة مضافاً إليها الكثير من غيرها، لا يصح أن تترك دون تقدير وإعجاب، فلا غرو أن عدت خسارة الآراء الحكيمة بموته فادحة، أحسن الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلقاً جديراً بسلفه العظيم» .

ثم قال الأستاذ متسائلاً : أفهمتم مرمى الجملة الأخيرة؛ إن الأستاذ وجدي يعرف أن الأهرام أقوى صحف العالم العربي، وأوسعها انتشاراً، ويخاف أن تتخلى عن طريقة صاحبها الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية، فأشار على الخلف باحتذاء السلف، فلو لم يكن له في مقاله غير هذا التوجيه لكان جديراً بالثناء لا بالانتقاد .

تراجع المعترض قليلا ثم سأل: ولماذا لا يكتب الأستاذ وجدي عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما كتب عن صاحب الأهرام؟ .

فرد الشيخ يقول من الدارس الخبير بهؤلاء؟ أنتم أم الأستاذ وجدي؟ أيلام الأستاذ إذا سكت عن قوم لا يكاد يعرف عنهم شيئاً؟ ولا تلامون وأنتم تعرفون كل شيء، ثم تقصرون؟ كنت أفهم أن يقول أحدكم: كتبت مقالاً عن فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره ! هنا يجب أن نسأل، فنعرف لماذا حُجب المقال! أما أن نلوم رجلاً محدود الاتصال بالعلماء، لأنه لم يكتب عنهم، ولا نلوم أنفسنا، فذلك كثير.!

زكي مبارك

تعلمت من زكي مبارك، كيف يتجه الإنسان نحو ما يحبه ويهواه، ولا يسمح أحيانًا للضغوط أن توجهه أو ترسله نحو ميدان لا يحبه؟ فقد جاء من الريف إلى الأزهر، ليكون شيخًا معممًا، شأنه في هذا شأن كل شيوخ الأزهر وطلابه الذين يطمحون في نيل العالمية في

الدين، ولكن القدر كان يخبئ لهذا القادم رحلة أخرى ومسارا مختلفا. قدر للطالب زكي مبارك أن يلتقي بأستاذين كبيرين، كان لهما أكبر الأثر في توجهه الأدبي، وهما الشيخ سيد بن علي المرصفي، الذي صحبه سبع سنوات، والشيخ محمد المهدي الذي صحبه أربع سنوات، كان الشيخان أديبين يوجهان الشباب ويدفعانهم نحو دراسة الأدب، على خلاف بقية شيوخ الأزهر الذين يوجهون الطلاب لمواد الشريعة، بل كان لهذين الشيخين أثر كبير في عمالقة الجيل كطه حسين والزيات ناهيك عن النابغة زكي مبارك، وقد بدأ هؤلاء الشيوخ بروح جديدة تتحرر من القيود، أثر المرصفي في زكي مبارك تأثيرًا كبيرا في أسلوبه وبيانه ورصانته الأدبية، التي ظهرت بعد ذلك كمارد جبار، يحسب لقلمه ألف حساب. تعلمت من زكي مبارك كيف أن الفقر والحاجة، لا تمنع المرء من تحقيق حلمه ورغبته وإصراره نحو المعالي، فقد طلب العلم وهو فقير الحال، يعيش حياة بسيطة فقيرة، يسكن ربع الغورية العتيق، وقد صور هو بذاته ذلك الفرق بين حياته الأولى وحياته بعد ذلك بسنوات فقال:" كنت لأول عهدي بحياة القاهرة، أعيش حياة بسيطة، فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أنتقل لقضاء الصيف في الريف، ثم تحضرت رويدا رويدا، إلى أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم في سنتريس" تعلمت من زكي مبارك أن قيمة المرء في عقله وعلمه ومكانته العلمية، وليس أبدا بما يحويه من مظاهر اللباس والتزين، وقد نقلوا عنه أنه كان لا يعبأ بالأناقة، ولا يحسن الملبس، ولا يبذل اهتمامه بالمظاهر، وقد ظل كذلك حتى آخر أيامه. تعلمت منه قوة الإرادة والإصرار لتحقيق الهدف، فقد وجد صعوبة عظيمة في تعلم الفرنسية، ومشقة في دراستها لا حد لها، لكنه تعلمها وأتقنها، واتصل ببعض المدارس المسائية لهذا الغرض، وشق طريقه فيها بقوة وقد ذكر في بعض كتبه: أن وفدا من الأجانب زار الأزهر أيام الثورة، فقام فيهم خطيبًا باللغة الفرنسية، وحاز ذلك إعجابهم حينما شاهدوا أزهريا معمما يصعد المنبر ويتكلم الفرنسية بطلاقة.! تعلمت من زكي مبارك كيف

يكون الإنسان وفيًا لمن أحسن إليه وعلمه، وخاصة من علموه، فها هو بعد وفاة شيخه المرصفي يذكره ويرثيه فيقول: " يا أيها الرجل الذي عرفت بفضله أسرار اللغة العربية، واستطعت بفضله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام. يا أيها الرجل أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية، ولا يزاحمك في قلبي إلا إنسان واحد، هو فقيد الأدب والبيان: الشيخ محمد المهدي، ولست وحدي تلميذك أيها الشيخ الجليل، فهناك مئات انتفعوا بعلمك وأدبك، ولكني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك في حرارة دونها بكاء الأطفال" ثم يقول بعدما ذكر ما له من فضل عليه وتشجيع، وعناية واهتمام: " فإن كان من آلاف القراء قارئ واحد استطاب ما أكتب ولو مرة واحدة، فليذكر أن الفضل في ذلك يرجع إلى تشجيع الشيخ سيد المرصفي طيب الله ثراه" تعلمت من زكي مبارك أن الأدب والأديب يعني أن يكون الإنسان وطنيًا، وأن يتصل الأديب بحب وطنه ويهتم بقضاياه، فقد قدر لهذا الأديب الكبير أن يشارك في ثورة ١٩١٩م، وكان واحدًا من خطبائها المبرزين، فقد ظل طوال حياته يذكر موقفه هذا ويزدهي به، وقد حق له أن يزدهي فإن هذا الحظ من المشاركة في ثورة ١٩١٩م، لم يتح للكثيرين من الكتاب، وكان هو يردد دائما كلمته: أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هياب "وكتب كذلك عن هذه الفترة في حياته عديدًا من الفصول والكلمات، فكان مما كتب: " كانت السلطة العسكرية تبحث عني لتقتلني، وكنت من خطباء الثورة المصرية وشعرائها، وكان الجواسيس قد أخبروا السلطة العسكرية أني ألقيت قصيدة سياسية في الأزهر، وكان يجب أن أحترس فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف مكاني، فقضيت ثلاثة أشهر، وأنا لا أعرف أين أبيت، كان مأواي غرفة في سطح بيت قديم يقيم بها أحد الشبان الأقباط من أبناء سنتريس" كان زكي مبارك وطنيا من الطراز الأول وهو في مرحلة الطلب كان يشارك في المظاهرات ضد الاحتلال، ويلقي الخطب والأشعار الحماسية في الأزهر، حتى ناله الاعتقال، وقال في هذا : " كنت من خطباء الثورة

المصرية واكتويت بنارها وشهدت آلام التشريد، والاعتقال شهورا طوالا. كان زكي مبارك شجاعا لا يخاف الهول والأخطار كمصري صادق يحب وطنه، وعلى استعداد أن يهب له حياته، فقد كان يذهب للأزهر ليقيم مظاهرة، وكانت المدارس تذهب لتشارك بأعلامها الخاصة، ويقفون صفوفا أمام الأزهر يخطبون ويهتفون، والطائرات الإنجليزية تحلق فوقهم وتحوم حول رؤسهم، فلا يصرفهم عن حب الوطن رهبة أو خوف.

تعلمت من زكي مبارك معنى الشهامة والإباء، كان لا يأبى الضيم ولا يقبل الذلة والمساومة على راحته وهنائه وسلامته، كان يقول عقب اعتقاله من جانب الإنجليز: " إنما خلقت لأكون مثلا في الشمم والإباء، ولو كان بي حب الدعة والطمأنينة، لما مكثت في المعتقل هذه الشهور الطوال، فقد فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل، ولكني أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد، وأقسم لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الإنجليز، لما كان في ذلك ما يزحزحني قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء عن البلاد"

تعلمت من زكي مبارك أنه مهما كانت المحن شديدة عليك، والفقر يطبق بأجنحته على صاحبه، فإنه أبدًا لا ينسى حبه للكتب، وشغفه بالقراءة، فقد ذكر في مقدمة ديوانه ألحان الخلود أنه كان في المعتقل يشتري بجزء من طعامه كتبا يقرأها.

علمني زكي مبارك جمال الشخصية ورفعة النفس وعلو المقام، وسمو الروح والاعتزاز بالنفس، والبعد عن مزالق النفاق والمصانعة. قال يوما في مقال نشره بجريدة الأفكار في نوفمبر عام ١٩١٩م: " تنصحني يا هذا بأن أجامل، وأن أصانع، بل تريد أن أنافق. ويحك. إنما ينافق الضعفاء. إن الله لم يخلقني لكي أكون ألعوبة، أداري هذا وأجامل ذاك، أنا خير منكم جميعا، أنا في نعمة من الله، لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم،

وإن الله لأكرم من أن يضطرني إلى مصانعة جماعة من الكسالى لا قيمة لهم في هذا الوجود، إن فضيلة الوفاء هي التي تضطر مثلي إلى أن يجامل بعض الناس، وسأعرف كيف أهجر الناس جميعًا حين لا يرضيهم غير النفاق." وقد كان هذا زكي مبارك في فوعة شبابه، وظل هكذا زكي مبارك حتى آخر رمق له في الحياة، حيث يقول: "هذا هو فصل الخطاب، ألستم تريدون أن أُنافق كما تُنافقون؟ كلا، لن يكون ذلك، إنكم تنافقون لتعيشوا، أما أنا فحَيٌّ بالرغم منكم؛ لأن الله لا يريد أن أموت، وسوف تعلمون."

كان زكي مبارك ثائر الفكر حر الرأي يفتعل المعارك الثقافية والأدبية منذ حداثته، وكان حريصا على إبداء الغرائب التي تصادم أعراف المجتمع العلمي في ذلك الوقت، كان يكتب أحيانا حتى ينال الشهرة وما في ذلك عيب، كان يكتب وينتقد الأزهر وأساتذته، وكتب رسالته للدكتوراه في الجامعة المصرية عن الإمام الغزالي وقدم آراء صادمة هذت الساحة الفكرية، التي أثارت عليه الزوابع وعرضته للتجريح، ولكنه لم يكن بالذي يخاف أو يتوارى ويستكين من كيد أو هجوم، بل كان يواجه الجميع بأفكاره وآرائه بقوة المفكر الملهم، ويقبل التحدي مؤمنا بأفكاره ورؤاه. ها هو يقول حينما صدر رسالته الجامعية للطبع يقول في مطلعها: " هذا هو كتاب «الأخلاق عند الغزالي» أقدمه للجمهور، ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق، وحظ المرجفين من الصواب. هذا هو الكتاب الذي رميت من أجله بالكفر والزندقة، والذي فجر لحسادي ينبوعا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض. وما أنا والله بنادم على رأي رأيته، أو قول جهرت به، فلست ممن يخافون في الحق لومة لائم، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين، ولغو اللاغين، من مرضى القلوب، وضعاف العقول، وصغار النفوس، وإنما يحزنني ما يلاقي أصدقائي من العنت في دفع ما يفتري الكاذبون، ويختلق المفسدون. على أن الغزالي رحمه الله عاني من حاسديه مثل ما عانيت، ولاقى ضعف ما لاقيت، حتى لنجده يطمئن أحد إخوانه بقوله: «رأيتك الأخ المشفق موغر

الصدر، مقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات" لقد كان التحدي كبيرا والخطورة بالغة، إنه لا يواجه جامعة، ولا يواجه لجنة المناقشين، وإنما واجه المجتمع كله بما يعج فيه من المحافظين النصوصيين، فقد أشار في بعض كتاباته إلى أن الشيخ محمد حامد الفقي، وقف يوم الجمعة التي تلت امتحانه، وخطب خطبة الجمعة وقال: ظهر في مصر ملحد جديد اسمه زكي مبارك، ذلك الذي فرحت الجامعة المصرية بإلحاده، فمنحته الدكتوراه، ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل الجنة، وقيل: إن خطيب مسجد الهدارة حرض المصلين على قتله" تعلمت من زكي مبارك معنى الصمود في الأزمات والصبر والجلد والتحمل، وقد تعلمت ذلك من رحلته إلى باريس واستلهمت العبرة من صموده أمام ما وجد من صعوبات وعوائق.

لقد خرج هذا الباحث العملاق الدكتور (زكي مبارك) أو الدكاترة (زكي مبارك) قوي الشكيمة، ماضي العزم، صارم النضال، لا يخنع أو يستسلم، ولا يعرف معنى اليأس والإحباط، مهما واجه من محن وعقبات كانت كفيلة أن تهدم آمال الأقوياء الأشداء.. لكن العمالقة وحدهم من يستطيعون قهرها ونحسبه منهم. إنه يتعقب ما فعله أستاذه (طه حسين) حين حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية، ثم يسافر إلى فرنسا، إلا أن (طه حسين) ذهب على حساب الدولة، أما (زكي مبارك) فعجز عن تحقيق ذلك، فسافر على حسابه الخاص، ورغم الظروف المادية الضيقة التي كان يمر بها، إلا أنه بذل كل جهده وإمكاناته ليسافر حتى يحقق هدفه، ويحصل على الدكتوراه من السوربون في النثر الفني.. وها هو يصور لنا تلك الرحلة ويصف فيها أيامه، وكيف تغلب فيها على ما واجهه من صعاب في مقدمة كتابة النثر الفني في القرن الرابع فيقول: " هو كتابٌ شَغلت به نفسي سبع سنين، فإن رآه المصنفون خليقًا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز، فهو عصارةٌ لجهود عشرين عامًا، قضاها المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي، وإن رأوه

أصغر من أن يورث المؤلف شيئًا من الزهو، فيتذكروا أني أَلَّفتُه في أعوام سُودٍ، لقيتُ فيها من عَنَتَ الأيام ما يقسم الظهر، ويقصف العمر: فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضي شطره الأول في القاهرة حيث أؤدي عملي، وأجني رزقي؛ وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين إلى أن ينفذ ما ادخرته أو يكاد، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم الله عز شأنه بالنصر المبين". كانت حياته في باريس، حياة طالب العلم الفقير ، الذي لا يملك أحياناً إلا قوت يومه، وكانت الجنيهات الخمسة عشر التي يرسلها إليه (عبد القادر حمزة) هي كل ما يملك من مورد، ويسجل هو وبقلمه هذه المرحلة الصعبة من حياته بضيقها وظروفها العسيرة فيقول: " كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضي أربعة أشهر في كل سنة في مدينة النور ، ثم أعود إلى وطني لأجمع بين الصحافة والتدريس، ما أستطيع به الرجوع إلى باريس من جديد، ودام ذلك بضع سنين، ثم عرفت أني لن أصل إلى غرضي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا في إحدى حالين: النصر أو الموت، وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات ، لأن أبي رحمه الله لم يكن يقدر على إمدادي بكل ما أحتاج إليه، وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراها لا يزيد عن بضعة قراريط، وكانت زوجتي أفقر مني ، ولم يكن لي في الحكومة المصرية عم ولا خال" وهو دائما ما يلفت إلى أنه وصل إلى ما وصل إليه بجهد بالغ ونضال جبار فيقول:" هل عانى أحد في دنيا الأدب مثل الذي عانيت، لقد انتزعت حظي من أنياب الحياة السود، فهو حظ مدون بالسم الزعاف، ولو استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلوا، ولكن كيف يستطيعون، وقد ضيقت عليهم الخناق، وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين على مكاره الجهاد" علمني زكي مبارك أن أرفض النفاق والتملق، وأن أعيش معظمًا لآرائي مدافعًا عنها معتزا بها، حتى ولو كان ذلك ينذر بضياع المقدرات والمكتسبات، فقد كانت نفسه في حياته تذخر

بصفات الشخصية المقاتلة، وروح التحدي التي ألفها في مصر، وأراد أن يشعل أُوارها في باريس، فرغم حلمه بنيل الدكتوراه من السربون، لم يسقه هذا الحلم أن يداهن في سبيله إنه يعتز برأيه ويمتليء قناعة بصواب ما يرى، ويواجه مخالفه مهما كان قدره ومكانته، والمدهش أن هؤلاء المخالفين كانوا أساتذته من المستشرقين الذين يملكون أن يحققوا له حلمه، ويملكون كذلك أن يهدروه له، ويضيعوا عليه أمانيه.. ولكن لا ضير.. فروح المقاتل في شخص (زكي مبارك) تسبق طموحة وتغالبه، فلا يمكن أبدا أن يُسلم بمذاهبهم وآراءهم، وأنى له ذلك وقد أعلن في السربون قوله: " جئت لأصحح أغلاط المستشرقين.!" وهنا نعرض لصورة من المعركة بينه وبين رأس المستشرقين في وقته (مسيو مرسيه).. والذي كان مفروضاً أن يرأس لجنة امتحانه، إنه يخالفه في الرأي.. وهاجمه عندما وصل إلى باريس، لأن له آراء مدونة في نشأة النثر الفني عند العرب، تختلف مع آرائه، ولكن (مسيو ماسينون)، نصحه بألا يقدم على ذلك، وأفهمه أن (مسيو مرسيه) رجل صعب المراس، وأن منزلته عظيمة، وأن المستشرقين يحبونه، ولم يكن هذا النصح ليجد صداه أمام هذه النفسية العنيدة في تمسكها وقناعتها بما تراه، فلم تنتصح برأي (مسيو ماسينون)، وابتدأ رسالته التي قدمها للسوربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس، فغضب الرجل وثار، وأصر على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث، وأصر زكي مبارك على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريته في نشأة النثر الفني. يقول :" وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره ، فمضى يعاديني عداءً خفيًا، كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعباً، من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف، وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف، ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه، وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها (مسيو ماسينون) كل الإفصاح، إذ قال حين لقيته أخيراً في باريس: إن (مسيو

مرسيه) لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك. وهذا العداء لا شك من جملة العوائق والتحديات التي واجهته في رحلته العلمية إن لم يكن أكبرها، ولكنه تجلد في مواجهته والوقوف في وجه خصمه، مهما كانت النتائج والعواقب.

علمني زكي مبارك كيف يستطيع الإنسان أن يحرم نفسه، مما تصبوا إليه في سبيل غايته التي يرجوها، كما فعل عام ١٩٣٢م وما أراها إلا من عظيم همته، ووافر عزمه، حيث قال:" في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي مرة، ولم أكذب عليه غير تلك المرة، كتبت إليه أقول إني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية، ولم يكن إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت، لأكتب فصلاً من فصول "النثر الفني"، وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية، إنما أنا قاهري يحبس أنفاسه في البيت يوم العيد، ليحفر بسنان القلم ثقباً يتطلع منه على ضوء العظمة في القاهرة"

علمني زكي مبارك أن الثقة بالنفس، تواجه أي عامل للتجاهل يسعى أن يقضي عليه، لأن إيمان الرجل بنفسه وثقته الكبيرة في قدراته، كان يفوق كل الحدود.. إن كثيراً من صنوف الإحباط واجهته، وكان التجاهل والازدراء أبرزها.. لقد شكا يوماً لقارئه قلة تقديره فقال: "إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرا علي مقالات لا يكتب مثلها كاتب، ولو غمس يديه في الحبر الأسود... إن بني آدم خائنون، تؤلف خمسة وأربعين كتاباً منها اثنان بالفرنسية، وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة، ومع هذا تبقي مفتشاً بوزارة المعارف" لم يورثه هذا التجاهل إحباطاً ويأساً، وإنما كان يزيد من ثقته بنفسه واعتزازه بقدراته، وهو يبلغ في إطراء نفسه حداً لم يبلغه غيره من المفكرين والأدباء، فهو معجب بأدبه وشعره، ويرى أن الدنيا كلها لم تجد بمثله، فحينما كتب الدكتور (محمد صبري السربوني) يصف شعره بقوله:"إن ديباجة زكي مبارك الشعرية ديباجة

بحترية" فرد تعقيباً عليه:"إنها كلمة يريد بها الثناء، ولكني عند نفسي أشعر من البحتري، وأشعر من جميع الشعراء." ويلفت الأستاذ أنور الجندي لعمق التحدي في حياة (زكي مبارك) فيقول في مقدمة دراسته الرائعة عنه:" كان (زكي مبارك) من أصدق الناس إيمانا بمصر، والقومية العربية واللغة العربية، غير أن الحصاد الضخم من العمل الأدبي الذي أنشأه خلال رحلته الطويلة، قد شابه طابع الإعلان عن النفس، نتيجة لعوامل الاضطهاد ، والإحساس بعدم التقدير الذي كان سمة العصور المتخلفة، والذي كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب، أو يجرون في ركاب الزعماء والوزراء وذوي النفوذ، وقد كان (زكي مبارك) أبياً عيوفًا، لذلك لم يجد المجال مفتوحا أمام كفايته، سواء في ميدان التربية والتعليم، أو في ميدان الفكر أو في ميدان الصحافة، فقد شق طريقه بنفسه، ونحت حظه من الصخر" ولعل البعض لا يجدون عناء التعريف بأنفسهم، ولا تضطرهم الظروف أن يثنوا عليها كما فعل صاحبنا لقربهم من ذوي الجاه والأحزاب الذين يروجون لكتباتهم. وليس معنى أن علاقة البعض بالسلاطين وانخراطهم في الأحزاب، أنهم غير أكفاء، أو أن مواهبهم لا ترقى لهذه الشهرة.. بلى.. فإن السلاطين والرؤساء والأحزاب ما تهافتوا على الموهوبين منهم، إلا ليحظوا بدعمهم ويسخّروا مواهبهم في خدمتهم، فهذه الأقلام الموهوبة كانت في نظر كثير من الأحزاب صمام الأمان، وحائط الدفاع، الذي يرد عنها مكاره أعدائها وخصومها. إن (زكي مبارك) يؤكد أن النجاح في الأدب للكثيرين من الكتاب، قام على سِناد من العصبيات الممثلة في الجمعيات والأندية والأحزاب، ويرى أن هذا التحزب تسبب في لمعان بعض الأسماء التي كانت أهلا للخمول، ولو واجهت الحياة الأدبية مجردة من هذا الدعم من حلفائها.. لكان مصيرها الإهمال.! وهو يعبر عن ذلك فيما قاله لطه حسين: "أنت لم تترك حزباً إلا خدمته، ولا جريدة إلا توددت إليها، بعد عديد من الرسائل الطوال" ثم يعقد المقارنة بين حاله وحال أستاذه، فيؤكد على هذا المعنى مرة أخرى : "قضيت دهري بلا نصير

ولا معين، وسأظل كذلك طول حياتي ، لأقيم على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع"

"لم يكن (زكي مبارك) صنيعة حزب من الأحزاب ، ولم يكن له سناد من الأسندة التي رفع كثيراً من الأدباء في مصر ، فهو يرى أن أحدا لم يعز أدبه، كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطي والعقاد، وكما أعز ثروت أدب طه حسين، وكما أعز محمد عبده أدب حافظ، ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية، ولم يصل إلى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفة إذ ذاك"

تعلمت من زكي مبارك، أن العلم أصالة وهوية ولا يمكن للمرء مهما سافر أو شرق وغرب، أن ينسى أصالته وهويته فبعد عودته من فرنسا لاحظ النقاد والأدباء أنه لا يكتب عن الآداب الغربية ولا اتجاهات النقد الأوربي، حتى أن الدكتور إبراهيم ناجي تهكم من ذلك على صفحات جريدة البلاغ وكتب يقول: إن زكي مبارك رجع من باريس ليكتب عن ابن خلدون وابن زيدون وليس عن أناتول فرانس! وكان جواب الدكتور زكي مبارك عليهم: إنني لم أتعلم في فرنسا لأتفرنس؛ وإنما كان المهم هو أخذ المنهج في طريق البحث والتأليف، وهذا واضح تماما في مقالاتي ومؤلفاتي.

توفيق الحكيم

قرأت لتوفيق الحكيم وهو في حيرة شديدة، حينما حزم حقائبه للسفر إلى فرنسا، وكان يتساءل هل يحمل هذه البذة – البدلة – التي تعز عليه، أم يحمل كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه؟ وما أسفرت حيرته أن انتصر العقد الفريد على حساب الشياكة والملابس، التي هي من ضرورات الحياة في فرنسا.. وكان يسير به في الشارع ويصطحبه معه في القهاوي.. ومن هو؟ إنه توفيق الحكيم أعظم الأدباء ومؤلفي القصة والرواية والمسرحيات.

تعلمت من توفيق الحكيم أن المكتبة التي توجد في البيت يمكنها بكل سهولة أن تدل الموهوب على هوايته، وتنمي فيه شغفه للثقافة والمعرفة، شريطة التعامل معها بحرية دون جبر وغصب، ولقد شق توفيق الحكيم أول طريقه بما وجد في مكتبة والده من كتب الأدب العربي كالعقد الفريد بأجزائه العديدة، والكامل للمبرد، والأمالي للقالي، وأخذ يطالع العقد الفريد بشغف شديد أكثر من مرة وفي مراحل كثيرة من حياته، وظل محتفظا بمجلداته ذات الطبعة القديمة إلى آخر حياته.. ويستحسن الحكيم أن والده الذي قسى عليه في حفظ المعلقات لم يقس عليه أو يوجهه لقراءة العقد الفريد وغيره وإلا لكان قد كرهه وجافاه، مع أنه في نظره أمتع وأكثر فائدة من حفظ المعلقات.

علمني توفيق الحكيم معنى الشوق للكتب التي أحرم منها وسعيي الدؤوب للحصول عليها والتنقيب عن آثارها، وهو ما حدث في اشتياقه لقراءة وكتب المسرحيات التي كان يشاهدها في دار الأوبرا وغيرها من المسارح، لقد بحث عنها حتى دلوه على شارع محمد علي، ولكنه لم يجد منها غير القليل، وكان يتألم كثيرا لأنه لم يجد هذه المسرحيات التي كان يسيطر الاحتياج إليها على نفسه ورغبته في تلك المرحلة المتوثبة من حياته.

علمنا توفيق الحكيم، معنى الوطنية شأنه في هذا شأن كل العظماء من الأدباء في تلك الفترة التي هادنوا فيها محنة مصر واحتلالها من قبل الإنجليز.. ولكن الحكيم لم يشارك في الحراك العملي الثورة فقط والمتمثل في المظاهرات، وإنما عرف طريقه مبكرا كيف يمكن أن تكون موهبته الأدبية سلاحا يواجه به المستعمر.

يقول الحكيم: اندمجت في أحداث الثورة، ووجدت نفسي في قلب المظاهرات، كنت طالبا في مدرسة الحقوق وقتئذ، شاركت في المظاهرات، ماذا كان نشاطي الأدبي في هذا الوقت ؟ كنت أعبر عما أشعر به، بتأليف الأناشيد والقصائد الوطنية، للأسف اندثرت، كثيرون من الذين ألفوا هذه الأناشيد لم يحافظوا عليها ، كنت أكتب الأناشيد وألحنها بنفسي، وحتى لحن هذه الأناشيد ، كنت أستوحى الموسيقى من المارشات الجنائزية في جنازات ضحايا الثورة ، كنت أستوحي الحاني من المارش الجنائزي لشسويان، وبعض المارشات الأخرى، كيف

كانت تنتشر هذه الأناشيد ؟ كان الناس عندما يجتمعون في المظاهرات ويتأهبون، أصيح فيهم: «اسمعوا فيه نشيد جديد». وأبدأ في الغناء، كان صوتى وقتئذ مقبولا ، وسرعان ما ينتشر النشيد إلى درجة أنني ذهبت ذات مرة إلى الإسكندرية، وجلست مع جماعة من أصدقائي، وقال أحدهم، جاء إلينا نشيد من مصر، فطلبت الاستماع إليه وعندما بدأ الغناء صحت قائلا: هذا نشيدي ، نشيدي أنا.. إلى هذه الدرجة كانت سرعة انتشار الأغاني الوطنية.

تعلمت من الحكيم كيف يمكن للمعلم أن يعلم طلابه معاني الوطنية، وحب مصر وبغض المحتل، وأن يغرس في نفوسهم صغارًا معاني الثورة والتمرد على الغاصبين، فقد ذكر أن الطلاب حينما عادوا إلى المدارس، ودخلوا الفصول، يجئ الأساتذة، ولكنهم لا يلقون دروسًا، إنما يجلسون صامتين، لا يتحدثون في الدروس، إنما يتحدثون في الوطنية، كان بعضهم يطلب مني أن ألقى بعضا من الأناشيد التي أضعها وألحنها، وكان الأساتذة يشجعونني، وأبدأ الإنشاد ، ويردد الطلبة، وفي المظاهرات كان الأساتذة بتقدموننا، كانت حركة عظمى، وزودت فينا الشعور القوى بالمصرية.

علمنا توفيق الحكيم صورة الحاكم الواعي لقضايا بلاده والمدرك للطريق الصحيح لنهضة أمته حيث قال: أريد أن أقوله للحاكم هو أن أخطر ما يواجهه هو الخضوع لجملة و الشعب عاوز إيه، القضية ليست الشعب عاوز إيه ، ولكن الشعب يجب أن يكون إيه .. مش الشعب عاوز إيه أقوم ألبي له كل طلباته السهلة والرخيصة، من الطبيعي جدا أن الشعب بحالته التي هو عليها اليوم يتطلع إلى الحاجة السهلة – عاوز يضحك – عاوز حوافز والسلام .. هذا أكبر خطر يواجه الشعب والحاكم، لا يمكن أن أبدأ بسؤال : ماذا أريد لعصر ، دون أن أحدد مباشرة ماذا أريد من الشعب ؟ – لأن في النهاية من الذي سيعزف اللحن المطلوب لمصر، الشعب هو الذي سيقوم بذلك بقيادة الحاكم المايسترو .. والمايسترو هنا ليس فقط قائدا ، ولكنه مرب – إذا كان الشعب يريد السهولة فيجب أن يربيه الحاكم على مواجهة الصعاب ، ويعلمه ضرورة الإنتاج ، ويمنع عنه صرف الحوافز إلا للذين يعطون لبلدهم ،

وبرامج الضحك تقدم بحساب ، والقيم يجب أن تكون الأساس لاحترام الفرد ، وليست الفلوس.

قال توفيق الحكيم : بعض الحكام قد يخافون من إيقاظ عقول الجماهير على أساس أنهم لو أيقظوا هذه العقول فستفكر وتتعبهم، وهذا غير صحيح الحاكم الناجح لا يجب أن يخشى من إيقاظ عقول الجماهير ، بل على العكس يسعد بذلك ، لأن هذه الجماهير ستزيده بمقولها المتيقظة ، وتأييد العقل أسلم وأبقى وأصبح من تأييد الوعي المفقود.

علمني توفيق الحكيم أن التعليم لكي يؤتي ثماره المرجوة في بلادنا يجب العناية به والاهتمام بمساره، حتى يقود مجتمعا ويخلق أمة ناهضة متقدمة في الحياة حيث قال: "أنا تركيزي على التعليم وعلى الجامعات لأن ما يحدث عندنا لا يمكن أن يخرج مثل العقول التي اخترعت القنبلة الذرية ، والتقدم الكبير الذي تحقق في الدول الكبرى .. حتى روسيا لا يمكن أن يكون فيها نظام تعليم جامعي بمثل ما عندنا .. لأن الجامعة في مصر أصبحت مثل الحج .. أعرف حجاجا يذهبون إلى بيت الله لكي يحصلوا على لقب حاج، ودليلي على ذلك تصرفاتهم التي يمارسونها بعد عودتهم من الحج ، وهي تصرفات لا يمكن أن تتناسب مع تعاليم الذي حجوا بينه . وكذلك خريجي الجامعة، فيهم كثيرون دخلوا الجامعة كي يقال إنهم حصلوا على شهادة جامعية، ولكن عندما تمتحن ثقافتهم وسلوكهم تصاب بفجيعة ، وتجدها مثل تصرفات الحاج الذي ذهب للحج للحصول على لقب حاج فقط."

علمنا توفيق الحكيم أن المرء إذا وجد من يشجعه في بداية حياته، ويخلق فيه حبا نحو موهبة من المواهب، فإنه يكون بدء مشروع عملاق لعقل عملاق، لقد حدثنا الحكيم عن شخصية الرجل الذي شجعه وحبب الأدب في نفسه، وهو مدرس اللغة العربية الجديد، شيخ معمم، إلا أنه عصري في تفكيره، لم يتقيد بالأساليب القديمة في التدريس، وأسلوبه فريد جعل يحبب الأدب العربي إلي الطلاب، ويجذبهم إليه ببعض أشعار الغزل الرقيق للعباس بن أحنف، ومهيار الديلمي، وعمر بن أبي ربيعة، ومن شابههم والإقلال من شعر المديح

والحكم والمواعظ، فما أن يلقي ما لديه على الطلاب المراهقين إلا ويضجون بالإعجاب ويطالبون بالمزيد، بل ويسألون عن المصادر ويدونون ما يسمعونه في دفاترهم، وهم بحكم مرحلتهم العمرية، تشتعل عواطفهم ويألفون الحديث عن الحب والهيام والشعور الجميل والخيال البديع، كانوا يحبون أن يسمعوا:

ابعثوا أطيافكم لي في الكرى   إن أذنتم لعيوني أن تنامْ

أو:

غيض من عبراتهن وقلن لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟!

ولم يكن على حد تعبير الحكيم يهمهم أن يسمعوا:

علو في الحياة وفي المماتِ   لحق أنت إحدى المعجزاتِ

أو:

له بفناء البيت سوداء فخمة   تلقم أوصال الجزور العراعر

ومنذ ذلك الحين، وعلى يد هذا المعلم، بدأ اهتمام الحكيم بالأدب العربي، الذي أحبه كل الطلاب، وبدا ذلك في موضوعاتهم الإنشائية التي كانوا يرصعونها بأبيات الشعر والعبارات الرصينة والسجع، وصور البيان المختلفة.

وقد دهش الحكيم ذات يوم، عندما منحه هذا المعلم أعلى الدرجات في موضوع كتبه، لم يعن فيه بحشر أبيات شعرية، ولا برص عبارات محفوظة، بل كتبه وهو شبه مريض مكدود، أطلق فيه نفسه على السجية، وترك قلمه يجري ببساطة من لا يريد أن يبذل جهداً في الإنشاء، أو يتكلف تأنقاً في البيان، والعجيب أنه كان يتوقع منه توبيخاً وتأنيباً، فإذا به يمنحه أعلى الدرجات، ويتلقى منه تقريظاً، وسلمه كراسة الإنشاء وقال له: "أحسنت.. إن خير البيان مالا يتكلف فيه البيان..".

علمني توفيق الحكيم الحرص على من نحب والإبقاء على مودتهم، وعدم الانجرار لأي ملحمة يمكن من خلالها أن أوغر صدورهم تجاهي، أو أن أقبل منهم كذلك ما يوغر صدري تجاههم فقد ذُكر أنه وقعت بينه وبين طه حسين خصومة، فقرر طه حسين أن ينقل تلك الخصومة إلى القُرّاء عبر نشرها في الجريدة التي كان يكتب فيها آن ذاك، فلما علِم توفيق الحكيم بهذا الأمر وسّط أحد الشخصيات ليرد طه حسين على قراره، فما كان من طه حسين إلا أن قبل توسط تلك الشخصية، ولم يكن الحكيم يخشى خصومة طه حسين، بقدر ما كان يوّد أن يبقى الود والاحترام بينهما، أما اليوم، فمعظمنا مجرد من شرف الخصومة، ويفجر من أول دقيقة في ملاحاته.

علمنا توفيق الحكيم هذا الشغف الذي يبتلى به العباقرة في صغرهم تجاه الكتب وحب القراءة، فقد كان يهرب بكتبه الأدبية التي لا يرضى عنها والده، ليقرأها تحت السرير في عتمة الظلام، ويصطحب معه شمعة تضيء له ما أمامه من صفحات الكتاب وسطوره، ومرة أصابه الفزع حينما ناداه والداه ليتناول الغذاء، فخرج مسرعًا من تحت السرير، وترك شمعة كأنها أسد نائم، أو نار تحت الرمان توشك أن يكون لها ضرام، لقد ترك الشمعة في صحبة الكتب، وبعد يسير من الوقت، سمع جلبة وأصواتًا في الشارع، ودعاوات لإطفاء الحريق، ولم يتبادر للأسرة أبدًا أن الحريق في بيتهم، وفي الحجرة التي خرج منها الصغير من وقت يسير، وكأن الشمعة قد عز عليها أن تظل وحيدة، فغضبت وأحرقت السرير وامتدت نيرانها لحرق الحجرة كلها، ونال بسبب ذلك علقة ساخنة لا ينساها أبدًا.

تعلمت من حياة الحكيم أنه لم يكن شيطانًا كما يصوره بعض المنغلقين، فمنذ فترة ليست بالطويلة، كنت أبحث عن بعض الأقوال في تفسير القرطبي، وراعني شيء لفت انتباهي، وهو وجود كتاب تحت عنوان مختار تفسير القرطبي، ولعل وجود مختصر للقرطبي أو مختارات منه، ليس بالأمر المدهش أو العجيب أو المحير، فكل التفاسير أو أغلبها لها

مختصرات أو مختارات قام بها كثير من العلماء الأفاضل، ولكن المدهش في هذا المختصر أنه لتوفيق الحكيم.!

نعم نعم.. إنه هو توفيق الحكيم الأديب المصري الكبير الذي نعرفه، والذي يعده البعض من قادة التنوير والتغريب العلماني، وهو ما دعاني للبحث والتنقيب في حياة الرجل أكثر وأكثر عن النقاط الإيمانية، التي تتخفى وسط هذا الركام من حياته.

ولعل هذا أول ما استنتجت من قيامه بهذا العمل والذي يدلل على أن الرجل كانت له معايشة عميقة مع القرآن الكريم، جعلته يقوم بهذا الجهد الكبير والعمل الدقيق.!

منذ أيام بدأت القراءة لتوفيق الحكيم وهو يسرد تفاصيل رحلته إلى أوروبا، في كتابه رحلة بين عصرين، فراعني من هذه الفكرة شيئا توقفت عنده، أعرف أن صورة توفيق الحكيم التي تربى عليها خيال الكثيرين، فهو رمز من رموز التغريب التي تعادي الدين وتأتي بأفكار منافية للدين، إن الرجل يخاف الله، ويعترف أنه يخاف الله، فلماذا نُشيطن سيرته، ونراه عدوا للهوية والانتماء.. لقد اعترضوا على كلامي وقالوا لي: يبدو أنك جاهل بمعركة الحديث مع الله.. التي كانت جرأة وقحة منه على جناب الألوهية، وهاج معها وماج علماء الأمة ودعاة الإسلام يردون وقاحته ويلزمونه حده.

ولما رجعت لتفاصيل الحادثة، وحقيقة المعركة، لم أجد معركة، اللهم إلا معركة واحدة أثارها بعض العلماء ونفخوا فيها حتى صارحت حريقا هائلا.

أما حقيقتها في نفس الرجل، فإنها كانت شعورا إيمانا تدفق في نفسه، ودفعه أن يكتب مناجاة لربه، فخانه التعبير في العنوان وحده، وحينما تعارك معه الخصوم لم يمسوا شيئا من صلب الموضوع، وسطور مناجاته، كل المعركة قد قامت من أجل الشكل العنوان فقط.

ولما علم الرجل وأخبره أحد الصحفيين بهذا المعنى، تراجع فورا وقال: طبعا أنا لا أقصد هذا، وإذا كان حد يفتكر كدا يبقى أنا غلطان، لا أريد من أحد أن يفهمني خطأ، صحيح أنا واثق إن ربنا فاهمني وفاهم نواياي، لكن زي ما قلت أنت لازم نراعي الشكل.

وغير العنوان فورًا من حديث مع الله إلى حديث إلى الله، بكل أدب وانصياع واستجابة بعيدة عن المكابرة والعناد.. ونشر الحكيم هذه الأحاديث فيما بعد في كتاب مستقل عام ١٩٨٣، وأسماه "الأحاديث الأربعة والقضايا الدينية التي أثارتها"، وقال الحكيم في مقدمة كتابه: "هذا الكتاب" الأحاديث الأربعة يضم الأحاديث التي نشرت بعنوان "مع وإلى الله" والتي أثارت الضجة المعروفة بين الناس مع أنها لم تزد عن كونها نوعا من المناجاة مع الله تعالى.. أستدرك وأقول: "إنها مناجاة بلغتي الخاصة وثقافتي الخلاصة تعبيرًا عن حبي الخالص لربي" فلن أقبل الفكر الذي يصدر بلا تفكر عن غير عقلي الذي خلقه الله ليفكر ولا أرتدي بلا مناقشة ما خرج من قلب وعقل الآخرين دون تأمل فيه وتمحيص، أما الضجة التي حدثت فهي طارئة ودخيلة على القضية التي سأفرد لها مكانا نظرا لأهميتها، هذا وقد رأيت عند إعادة الطبع في هذا الكتاب استبعاد كل الكلمات والأسطر التي كتبت تخيلات منسوبة إلى الله مراعاة للحساسية الدينية التي لا أريد إطلاقا أن تسبب إزعاجا لأي مؤمن، كما حرصت على تخريج الأحاديث الشريفة والأفكار التي وردت في الأحاديث الأربعة والتي قال عنها بعض العلماء إنها أحاديث موضوعة ضعيفة أو غير موجودة فعدت إلى المصادر التي استقيتها منها فإذا بها أحاديث حسنة الإسناد لا يكاد يخلو منها كتاب من أمهات الكتب الإسلامية.!

وأضاف الحكيم إلى كتابه فصلا بعنوان: "أنا مسلم... لماذا؟" أجاب فيه عن السؤال بالقول "أنا مسلم لما جاء في الإسلام من عناصر ثلاثة: الرحمة، العلم، البشرية وقبل ذلك وفوق

ذلك لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم لأني مؤمن بالرحمن الرحيم وهي الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه ونكررها في كل ساعة: بسم الله الرحمن الرحيم".

وذكر في هامش كتابه إن حديثي مع الله وإلى الله في مقالاتي الأربع التزمت فيه أدب الحديث مع ربي: كررت أكثر من مرة أنه لم يخاطبني وإنما أن الذي أجيب مستلهما ما يمكن أن يكون رد الله على تساؤلاتي مستلهما من قرآنه الكريم وسنة نبيه صلوات الله عليه.. تأويلي لبعض الآيات في حديثي استقيته من أمهات كتب التفسير والأحاديث استقيتها من أمهات الكتب الإسلامية، سامح الله من أساء فهمي ومن أساء الظن بقصدي ومن افترى عليّ ما لم أقله ومن أراد تنفيري من الإسلام دين السماحة واليسر"

تعلمت من توفيق الحكيم الحرص على الصلاة وأنها مبعث الإيمان والسند في الغربة، وحمد الله على التمسك بهذا الإيمان وقيمه في النفس، فحينما رحل إلى فرنسا نزل في أحد الفنادق في الحي اللاتيني بباريس، وضايقه منه عدم وجود حمام بالفندق، فقالت له الخادمة العجوز: هذا حال أغلب الفنادق في الحي، وعلى من يريد الاستحمام أن يذهب إلى حمام السوق، يقول الحكيم: وماذا عساي أصنع للوضوء؟ إني، معتاد الصلاة، وقد جئت من بلادي إلى أوروبا والإيمان ملء قلبي، كيف السبيل إلى التطهر إذن والمرحاض هنا لي به ماء؟! ورأيت بجوار فراشي قارورة ماء للشرب مغطاة بكوب زجاجي، فصرت قبل كل صلاة أحمل هذه القارورة معي إلى المرحاض، وكانت الخادمة تتعجب من حمله للقارورة في ذهابه وإيابه حتى أنها سألته عن ذلك متحيرة بقولها: هل تخشى العطش وأنت تسير؟ ولم تعلم العجوز أنها من أجل الضوء والصلاة.

وفي موقع آخر من كتابه رحلة بين عصرين يقول الحكيم: خطر لي الذهاب إلى حي مونمار، هذا الاسم الذي طالما سمعت به من قبل، ففترنا بأسماء الفنانين البوهيميين والأوباش وأهل

الفجور، أما الأوباش وأهل الفجور فحاشا لله، فأنا والحمد لله مازلت محتفظا بروحي الديني"

تعلمت من الحكيم أن الاجتهاد في الكتابة والاطلاع الوفير قبل هذه الكتابة، والتدقيق في مصادرها وأصولها، حتى أقدم شيئا سليما دقيقًا خاليا من الخطأ والافتراء، فقد كان الرجل حريصا كل الحرص على انتقاء الأحاديث الموثوقة والكتب المعتمدة، ولم يكن كغيره من الكتاب الذين يهيمون على الكتب المكذوبة والتي تعج بالتدليس والزور، ويلبسون على القراء أنها من تاريخ وتراث الإسلام.

ففي مسرحيته أو كتابه عن السيرة والذي يحمل اسم محمد صلى الله عليه وسلم، يقول: "خطر لي أن أضع كتابا في السيرة، فعكفت على الكتب المعتمدة والأحاديث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل، ويقول كذلك عند نشرة للمقالات التي أثارت الضجة التي أشرت إليها في مقدمة المقال: " كما حرصت على تخريج الأحاديث الشريفة والأفكار التي وردت في الأحاديث الأربعة والتي قال عنها بعض العلماء إنها أحاديث موضوعة ضعيفة أو غير موجودة فعدت إلى المصادر التي استقيتها منها فإذا بها أحاديث حسنة الإسناد لا يكاد يخلو منها كتاب من أمهات الكتب الإسلامية!"

فالرجل كان منهجه قائم على التحري النزيه وطلب الصحيح من الأحاديث التي يدلل بها على غايته ونبل محمود منه أمام ما نرى ونسمع من كتاب فقدوا الضمير، وهم يعلمون فساد المرويات التي يكتبون عنها ويرونها للناس، ومع ذلك تدفعهم الجرأة على هذه الوقاحة والإساءة لتراثهم وهويتهم ودينهم وتاريخ أمتهم.

تعلمت من الحكيم كيف أوجه وأبدي النصح والتوجيه عبر القلم الذي يحمل رسائل مهمة لمن لا يقبلون النصح أو يضيقون به، لقد جسد في كتابه (عودة الوعي) مرحلة التيه التي

غرق فيها الشعب المصري وفقد فيها وعيه إلى أن عاد إليه مرة أخرى ، ويعترف الحكيم بأنه كان أحد الذين فقدوا وعيهم فأيدوا كثيراً من القرارات الخاطئة ضد الحرية والديمقراطية ، وفي ظل هذا كان الشعور الوطني يلقي بثقله على الحكيم، فهو لابد أن يردع عبد الناصر ..لابد أن يقول له أنت مخطئ، ولكن لا سبيل إلى هذا إلا بطريقة مواربة غير مباشرة.. فقد كان عندما يخالجه شك ويرى منه الشطط والجور يلجأ إلى إشعاره برأيه ، ويستخدم في ذلك قلمه وموهبته.. فخاف مرة أن يجور سيف سلطانه على القانون والحرية، فكتب (السلطان الحائر) ، ثم خاف أن يكون غافلاً عما أصاب المصريين قبيل حرب ٦٧ من القلق والتفكك فيعتمد عليه في الاقدام على مغامرة من المغامرات فكتب له (بنك القلق) ..وهي جميعها كتابات رفيقة بعيدة عن العنف والقسوة ، تشير إلى المقصود في هدوء حكمه ..أما (عبدالناصر) فقرأ كل ما كتبه الحكيم ، ولعله فهم مقصوده، ولكنه لم يأخذ به في شيء مما سلك، وهي الطريقة المتخفية التي لجأ إليها الحكيم حتى لا يجلب لنفسه شيئا من الضرر.. إن النصيحة يجب أن تكون ذكية حصيفة، تنتقي الزمان والمكان المناسبين حتى لا تخطيء أهدافها المرجوة، ومن ينصحون الحكام جهاراً لا يقبل منهم ..وكيف يقبل منهم وقد فضحوهم على الملأ ، وأشعروهم بضآلة أنفسهم بين من يرونهم تحت أيديهم..

علمني توفيق الحكيم معنى عزة الكاتب وكبرياءه، وهو المعنى الذي حثته عليه زوجته، وتعلمه منها كما تعلمناه نحن منهما، فحينما رشح لنيل قلادة النيل، وتسلمها من عبد الناصر شخصيًا في حفل كبير به جمع كبير من المكرمين، وهنا وأثناء خروجه وتجهيز نفسه للحفل قالت له زوجته: احذر أن تحني رأسك أمام عبد الناصر، وأنت تتسلم القلادة، كررتها أمامه أكثر من مرة، فسألها الحكيم: وكيف لا أنحني برأسي أمامه، وهو رئيس الجمهورية؟! فقالت له في ثقة: أنت في عيوني أعظم من الرئيس، أنت أهم رجل في الدنيا، ولا تنس نصيحتي لك عندما ينادون على اسمك.

ويُذكر أن زوجة الحكيم، جلست أمام التليفزيون تنتظر اللحظة التاريخية، وشاهدت الحكيم وهو يقترب من عبد الناصر، في خطوات ثابتة، ووقف أمامه كالصقر، لم تنخفض رأسه، وصافح الرئيس، وقامته مرتفعة، ثم تسلم القلادة، ومازالت قامته مشدودة، حتى عاد إلى مقعده وسط تصفيق الحاضرين.

وقالت زوجة الحكيم:

"تابعته في التليفزيون، ولاحظت أنه لم ينحن برأسه أمام الرئيس، وسعدت بذلك أكثر مما سعدت بالوسام".

بل تعلمت من الحكيم قيمة المرأة وقيمة عطائها وكم تملك من العطاء والإمكانات لتحيي الأمة بأكملها حينما قال: " إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات "

أحمد أمين

تعلمت تعلمت من أحد أمين أن البيئة التي تذخر بالكتب والمعرفة، يمكن لها بل من الأكيد أن تنتج عقولا عبقرية مثقفة ملهمة، تثمر مع الزمن عقلا كريما وفكرا رصينا ومكافحا أبيا في سبيل العلم، فقد كان أبوه مولعا بالكتب في مختلف العلوم، في الفقه والتفسير والحديث واللغة والتاريخ والأدب والنحو والصرف والبلاغة، وقد مكنه عمله مصححا في المطبعة الأميرية، أن يقتني كثيرا مما طبع فيها وكانت هذه المكتبة أكبر متعة له حين استطاع الاستفادة منها، وقد احتفظ بخيرها نواة لمكتبته فيما بعد.

تعلمت من أمين أن البيئة المتدينة تنتج إنسانا صالحا عفا مستقيما خلوقا محترما، تحافظ على سلوكه وتضبط مسار أخلاقه، مهما تعرض للمغريات والمتغيرات والمؤثراتا الخارجية المحيطة، فإن قدسيتها لا تزال قائمة في أعماقه لا تنزوي أو تغيب، وهي ذات البيئة التي نشأ وتربى فيها أمين فكان نعم الفتى والأستاذ والمعلم والكاتب المستقيم، وها هي البيئة كما يصورها في ذكرياته: "يغمر البيت الشعور الديني، فأبي يؤدي الصلوات لأوقاتها ويكثر من

قراءة القرآن صباحا ومساء، ويصحو مع الفجر ليصلي ويبتهل، ويكثر من قراءة التفسير والحديث، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها، ويحكي حكايات الصالحين وأعمالهم وعبادتهم، ويؤدي الزكاة ويؤثر بها أقرباءه ويحج وتحج أمي معه – ثم هو يربي أ أولاده تربية دينية فيوقظهم في الفجر ليصلوا ويراقبهم في أوقات الصلاة الأخرى ويسائلهم متى صلوا وأين صلوا؟ وأمي كانت تصلي الحين بعد الحين – وكلنا يحتفل برمضان ويصومه – وعلى الجملة، فأنت إذا فتحت باب بيتنا شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية، ولست أنسى يوما أقيمت فيه حفلة عرس في حارتنا، وقدمت فيه المشروبات الروحية لبعض الحاضرين، فشوهد أخي المراهق يجلس على مائدة فيها شراب، فبلغ ذلك أبي فمازال يضربه حتى أغمي عليه – وكان معي يوما قطعة بخمسة قروش فحاولت أن أصرفها من بائع سجائر، فشاهدني أخي الكبير فأخذ يسألني ويحقق معي تحقيق «وكيل نيابة» مع المتهم، خوفا من أكون أشتري سجائر لأدخنها إذ ليس أحد في البيت يحدث نفسه أن يشرب سيجارة."

نعم كانت هذه البيئة شديدة التأثير على سلوكه وأخلاقه، ومهما تعرض للمتغيرات التي تصادم هذه القيم وهذه الأخلاق التي تربى عليها، فإنه ثابت لا يتغير أبدا ولا يتزحزح عن قيمه التي تربى عليها، حيث يقول: "إن كل خصائص البيت انعكست في طبيعتي وكونت أهم مميزات شخصيتي. فإن رأيت في إفراطًا في جانب الجد وتفريطا معيبا في جانب المرح، أو رأيت صبرًا على العمل وجلدًا في تحمل المشقات، واستجابة لعوامل الحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور، فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه. وإن رأيت دينا يسكن في أعماق قلبي، وإيمانا بالله لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاتي في كتب الملحدين، أو رأيتني أكثر من ذكر الموت وأخافه، ولا أتطلع إلى ما يعده الناس مجدا ولا أحاول شهرة، وأذكر في أسعد الأوقات وأبهجها أن كل ذلك ظل زائل وعرض عارض، أو

رأيت بساطتي في العيش، وعدم احتفائي بمأكل أو مشرب أو ملبس، وبساطتي في حديثي وإلقائي، وبساطتي في أسلوبي وعدم تعمدي الزينة والزخرف فيه، وكراهيتي الشديدة لكل تكلف وتصنع في أساليب الحياة، فمرجعه إلى تعاليم أبي وما شاهدته في بيتي.

لقد قرأت الكثير مما يخالف هذه التعاليم، وصاحبت أهل المرح وسمعت آراء الإلحاد، وأنصت إلى من ينصحني بالابتهاج بالحياة، وتعاقبت أمام ناظري أنواع الحياة المختلفة والمظاهر المتباينة ونحو ذلك، ولكن تسرب بعض هذه الأشياء إلى عقلي الواعي كان على السطح لا في الصميم، أما شعوري العميق وما له الأثر الكبير في الحياة من اللاوعي فمنشؤه البيت، كانت الصفحة بيضاء نقية تستقبل ما يقع عليها وتدخره في خزانتها، ثم تكون له السيطرة الكبرى على الحياة مهما طالت. نعم إني لأعرف من نشئوا في بيت كبيتي تغمره النزعة الدينية كالنزعة التي غمرت بيتي، ومع هذا ثاروا على هذه النزعة في مستقبل حياتهم، وانتقلوا من النقيض إلى النقيض. ولم يعبثوا بالسلطة الدينية التي فرضت عليهم في صغرهم. فلماذا كان موقفهم غير موقفي واتجاههم غير اتجاهي؟ هل كان ذلك لأن الدين يتبع المزاج إلى حد كبير، أو لأن شخصية أبي كانت قوية غرست في ما لم يستطع الزمان اقتلاعه، أو أن عوامل البيئة زادت هذه النزعة الدينية نموا، فلما جاءت العاصفة جاءت متأخرة؟ لعله شيء من ذلك أو لعله كل ذلك أو لعله شيء غير ذلك."

تعلمنا من حياة أمين أن الصحبة الصالحة لواعية الفاهمة، تدل دوما على الخير، وتدفع للوعي، وهو ما وجده من صديقه الأزهري الذي كان يحثه دائما ليحضر معه دروس الإمام محمد عبده، ولكنه كان يعرض ولا يلقي بالا، وصاحبه يلح عليه كثيرا حتى لبى طلبه، وذهب ورأى الإمام وجلس إليه وقال: "حضرت درسين اثنين، فسمعت صوتا جميلا، ورأيت منه منظراً جليلا، وفهمت منه ما لم أفهم من شيوخي الأزهريين، وندمت على ما

فاتني من التلمذة عليه، واعتزمت أن أتابع دروسه، ولكن كان هذان الدرسان آخر دروسه رحمه الله." واستطاع أمين عبر هذين الدرسين اليتيمين اللذين كانا آخر ما قدم الإمام في حياته، أن يرصد ويسجل لقطة مهمة في شخصية الأستاذ الإمام، ربما لم يعرفها ولم يروها عنه غير أمين، وهي حبه للمرح والنكتة والنوادر والمسامرة، يقول أمين:

"وكانت دروسه مملوءة بالفكاهات الظريفة، فمرة مثلا دخلت في الدرس فتاة صغيرة أتريد أن تسر إلى أبيها كلاماً فجلست بجانبه، وكانت هذه الأيام حركة قاسم أمين. فقال الشيخ: إن هذه هي المرأة الجديدة، إذ كان قاسم أمين ألف كتاباً سماه «المرأة الجديدة».

ومرة حضرت درسًا للشيخ ولم أفهم بعض العبارات، وسألت صاحبي عنها فلم يفهمها فاتفقنا على أن نكتب له خطاباً، وكانت هذه عادة جارية، واخترنا أن نمضي الخطاب بحرف من اسمي وهو الميم وحرف من اسم صاحبي وهو الراء فجاء الشيخ بعد أن استلم الخطاب وقال: جاءني خطاب من شيخ اسمه «مر» أو مر ولم يفهم، ثم أخذ يشرح ما غمض علينا في أدب ووضوح، وكان دائما يلخص لنا ما ورد إليه من خطابات مهمة، وأذكر أنه أتاه خطاب يهدده بالقتل لأنه كافر ملحد، وبعد أن قص علينا القصة قال: «لتمن أن يكون هذا صحيحاً فيوم يشجع المصري ويقتلني، أكون فخورا» ثم أنشد قول القائل:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع."

تعلمت من أمين حب القراءة إلى حد النهم والتوغل في كتب التراث دراسة وفهما وتمعنا، بل وحب اللغة وكتبها، لأنها المعين الوفي والميزان الأسمى لكل كاتب وأديب.. إنه يقول: حببت إلي القراءة في المكان الخالي على شاطئ البحر بالإسكندرية، وهناك قرأت بعض كتب الغزالي فشرعت بنزعة صوفية، وحفظت كثيرا من نهج البلاغة إعجابا بقوة أسلوبه، وقرأت

كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم، فتحمست لأبطال الإسلام، وأعجبت منه بتحليل شخصياتهم، وفلسفة الحوادث في أيامهم.

ولم يكن هذا حد الدراسة والقراءة في حياة أمين، وإنما تعرض قبلها لبرنامج منظم من والده استطاع عبره أن يدرس كثيرا من الكتب العلمية التي شكلته عقليته الكبيرة، حيث رتب له أبوه دروسا في النحو، قرأ له شرح الأجرومية للشيخ خالد، ثم كتاب قطر الندى، وكتاب شذور الذهب لابن هشام، ثم شرح ابن عقيل على الألفية، وكلها كتب تمتاز بوضوح العبارة وسهولة الأسلوب. فكان يتقبل دروسه في هذه الكتب في لذة وشغف ونهم، وإلى جانب ذلك قرأ له كتاب فقه اللغة للثعالبي، وشرح بعض مقامات الحريري في الأدب، وليست دراسة اللغة والأدب مما يعني به الأزهر، ولكن عني بها أبوه، ثم حبب إليه القراءة في مكتبته، فكان يقرأ في تاريخ ابن الأثير، ووفيات الأعيان وفاكهة الخلفاء، وكليلة ودمنة ونحو ذلك، وقرأ له أبوه كتابا في المنطق وكتاباً في التوحيد، فكان هذا كله في الحقيقة أساس متين لثقافته، وترك له دروس الفقه والجغرافيا والحساب لحضرها في الأزهر.

نجح أمين وأحس بالتفوق على زملائه في الأزهر، حتى طلب إليه بعضهم أن يقرأ لهم شرح ابن عقيل في مسجد المؤيد في بعض أوقات الفراغ ففعل، وصادق بعض الإخوان ممن لهم ذوق أدبي، فكان يجتمع بهم في أحد المساجد لحفظ مختارات من مقامات بديع الزمان ورسائله، وأمالي القالي، وأمثال الميداني، ودلهم أحدهم على كتاب ظهر للشيخ إبراهيم اليازجي اسمه «نجعة الرائد»، يذكر فيه أحسن ما قالته العرب في الموضوع الواحد، فأحسن ما قيل في الشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والحلم والغضب إلخ، فاشتروه واخذوا أنفسهم بالحفظ منه.

علمني أحمد أمين أن القدوة في حياة الإنسان شيء مذهل، يدفعه نحو العلا والسمو والرفعة والترقي الإنساني والأخلاقي، علمني أمين أن الإنسان منا يوم أن يجد القدوة في حياته يتأثر كثيرا ويعتدل كثيرا ويكون مهيأ لمعالم الإصلاح والتوجيه والشاد، وهو ما مني به في حياته يوم أن تهيأ له الشخص القدوة الذي أثر فيه وعلمه الكثير، ووجه بوصلة اهتماماته ومعارفه في العلم والحياة والسلوك.. حيث يقول: " كان أعظم ما كسبته في الإسكندرية، تعرفي بشخصية قوية، كان لها أثر كبير في نفسي – كتب إليه قريب لي بوصية بي خيراً – كان أستاذًا للغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية، تخرج في دار العلوم، وكنت في الثامنة عشرة وكان في نحو الثانية والأربعين، وكان طويل القامة، معتدل الجسم، جميل الوجه، ذا لحية سوداء، نظيفا في ملبسه، أنيقا في شكله من غير تكلف، اتصلت به فأعجبني من أول نظرة، واتخذني أخاً صغيراً واتخذته أخاً كبيراً، وكان متدينا، بل كان صوفياً، يعتنق طريقة النقشبندية، ولم أعرف

تصوفه إلا بعد مدة طويلة من معاشرته، وكان – مع تصوفه هذا – واسع الأفق حر الفكر، لا يدين بشيء من الخرافات والأوهام، ويؤيد الشيخ في دعوته إلى الإصلاح، وكان في مدرسته محبوباً محترما، يجله زملاؤه ورؤساؤه وتلاميذه أبي النفس عزوفا عن الصغائر يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب، ويترك لهم الحرية في الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضى، ولم يكن في درسه مدرس لغة عربية فحسب، بل مدرس تفكير ونقد للمجتمع، وما شئت من شئون الحياة، حتى كان تلاميذه يسمونه الشيخ الإنجليزي، لترفعه وحريته وصدق قوله وسعة فكره.

صحبته فكان مكملا لنقصي، موسعا لنفسي، مفتحا لأفقي، كنت أجهل الدنيا حولي فعرفنيها، وكنت لا أعرف إلا الكتاب، فعلمني الدنيا التي ليست في كتاب. وكان أبي

وشيوخي يعاملونني على أنني طفل، فعاملني على أني رجل؛ فملأ فراغي وآنس وحدتي – كنا نلتقي في كثير من الأيام بعد العصر أو يوم الجمعة أنتظره في محل قريب من بيتي.

وقد يكون معنا رجل أو اثنان من بعض أصدقائه. والأستاذ – في الطريق أو المقهى، أو حيث كنا – يحدثنا حديثاً طريفاً ممتعاً، ينقد المجتمع نقد خبير، وهو كثير التجارب واسع الاطلاع طلق اللسان – إذا زرته في بيته حدثني عن شيوخه في دار العلوم، كالشيخ حسين المرصفي، والشيخ حسن الطويل، والشيخ حمزة فتح الله وأمثالهم، وأبان مزاياهم وعيوبهم في دقة؛ أو حدثني عن الكتب التي ظهرت حديثاً وعن القيم منها، وما ليس له قيمة، أو قرأنا في كتاب كدلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وأحياناً كان يصحبنا صديق له لطيف، موظف في جمرك الإسكندرية، همه في الحياة النكت اللطيفة، والنوادر المستملحة، مع خفة في الروح نادرة، فإذا حضر لم ينقطع ضحكنا ولا إعجابنا، ولا أدري من أين كان يأتي كل يوم بالجديد من هذه الطرائف ويسميها طرائف اليوم، وهو يتعصب للإسكندرية ويفضلها على القاهرة، فإذا تحدث عن ذلك سمعت منه العجب في معايب القاهريين ومحاسن الإسكندريين، وكان هذا شيئا جديداً على لم أر مثله، لعل له الفضل في تقديري للنكتة، وإعجابي بها. وعلى الجملة فلئن كان أبي هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثاني، انتقلت بفضله نقلة جديدة وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبداً للتقاليد تحررني، وضيق النفس ما وسعني، وظلت صداقتنا سنين، ينتقل من الإسكندرية إلى القاهرة فتتجدد صداقتنا وتزيد، ويشاء القدر أن يجمعنا بعد مدرسين معا في مدرسة القضاء فتقوى الصداقة وتتأكد، وأستفيد على مر الأيام من علمه وتجاريه وحسن حديثه، وتجيء الحركة الوطنية فأتحمس لها تحمس الشباب، وينظر إليها نظر الشيوخ وأقومها" وذلكم هو المرحوم الشيخ عبد الحكيم بن محمد."

تعلمت من أمين أن أقدر الناس وأنزلهم منازلهم، بل وأرصد فيهم أخلاقهم التي تميزهم وترتفع بهم عن مهاوى الزلل، لقد كان يرثي أحد الأدباء الكبار وهو (علي بك فوزي) وكان مما رصد في أخلاقه هذه الخلة الذهبية التي لا يرقاها إلا المهذبون من تلقوا حظًا وافرًا من التربية الروحية والأخلاقية حينما قال عنه: " لم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير، يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير، ويتكلم اللغات كلها كأداة يتعرف بها الثقافات المختلفة، ويقف على أحسن ما يقف فيه، هذا إلى نصيحة في النقد وقوة في الملاحظة وشخصية آثرة بارزة، لا تخضع لأي مؤلف مهما عظم، ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء، فهو ذهب خالص غطي بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتصل إلى باطن نفسه."

فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء.!

من يستطيع عمل هذا إلا أهل النبل والسمو؟!

علمني أمين فن الكتابة، وفن اقتناص الفكرة حتى ولو كانت فكرة تافهة، إذ يمكن أن أبني عليها فكرة عظيمة، وذلك من وعي الكتاب وقوة تفكيره، فمن المبهرات أنه كتب يومًا عن الكتكوت، وما أسرع ما يتهمه النصوصيون الظاهريون بالتفاهة، لكن الرجل ربط بالحديث عنه، بين كثير من المعاني الحياتية والثقافية المهمة الملحة، والمفزعة أحيانا، فكان رائعا قويا في طرحه، فقد عرج به إلى الحديث عن مشكلة اللغة والأسماء الغريبة الواردة عليها، ونوه في رقته ووداعته بغدر البشر وقسوتهم ونفاقهم، بل ذكر فيه حيرة الفلسفة وسر الوجود، وجعل فيه معاني الحياة وغوامضها وأسرارها، بل جعل فيه كل مظاهر الإنسان على تبجحه وغروره، وكل ما حير العقول قرونا وأجهد الفكر أجيالا.

نعم كل هذا من الكتكوت.! فلا تتعجب إنها الثقافة وإنه الفكر والوعي، الذي لو ملكته لربما حدثتنا في مقال قادم ليس عن الكتكوت، وإنما عن مجرد بيضة يتمثل فيها سر العالم.!

تعلمت من أمين معاني التربية الراشدة في تكوين جيل مثقف محب للكتابة والقراءة والعلم والفكر، وهو الدور الذي كان يقوم به بين أبنائه ليحببهم في الثقافة، إذ كان ينشر لهم مقالاتهم ومكتوباتهم في مجلته تشجيعا لهم، فعل هذا وهم فيما دون العشرين، فمنهم ابن ١٥ سنة ومنهم ابن (١١) سنة، كان ينشر لهم ويطبع قصصهم التي يؤلفونها، ومجلاتهم التي ينشئونها في

مدارسهم هم وأبنائهم، ولا يستقل منها ومنهم أبدًا، وقد نجحت خطته فخرج أبناؤه كتابا كبارا وأدباء معروفين.

يقول جلال أمين: " كان أبي حينما بلغت أنا وأخي حسين سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه في مجلة الثقافة، تلك المجلة الرفيعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها"

ولا شك أن أساليب أحمد أمين، قد نجحت في شحذ همم الصغار والزج بهم في عالم القلم والكتابة والنشر، بل لفتهم إلى المسؤولية تجاه أنفسهم، حينما تحملوا مسؤولية أقلامهم بعد أن أدركوا أن لها مكانًا وقيمة، يجب أن يحافظوا على مستواها ومكانتها بين العمالقة الكبار.

علمني أمين صورة ذلك الكاتب المفكر الذي تضيق به زوجته من عشقه للكتابة، وانصرافه عنها عن البيت وهمومه، ولكنها ما لبثت أن استسلمت لطبيعة زوجها وحاله، ولم تبخل عنه بمؤازرته وتحمل المسؤولية معه، ليخلص لمواهبه حيث تزوجها ولم يتعرف كلاهما على أخلاق صاحبه، أو يتكشف أحدهما طباع الآخر، ورغم أن ثقافة هذه الزوجة كانت محدودة، إلا أن (أمين) كان مسرفًا في هيامه بكتبه وقلمه، التي يقضي معها أغلب الوقت

غافلا أن له قرينة تعيش معه، ولها كثير من الحقوق، وعلى رأسها هذا الوقت الذي يمنح أغلبه للبحث والتأليف.! حتى جاء يوم الصاعقة، ذلك اليوم الذي انفجرت فيه الزوجة، ولم تتحمل هذا الغلو الثقافي الفاحش، فخرجت عن مشاعرها غاضبة!

حينما أعدت العشاء، وفتحت الباب لتخبره بأنه قد تم إعداده، لكن صاحبنا لم يكن يدري بما حوله، ولم يسمع النداء أو يفطن لفتح الباب، لأنه كان غارقًا في ترجمة وصياغة بعض الجمل الفلسفية، فلم تُطق الزوجة صبرًا، فكان خصامها ونزاعها وشكواها إلى أهلها، ولكن رغم هذه الحادثة التي غضبت فيها غضبًا عارمًا، لم تستطع أن تغير من أخلاق زوجها وطباعه، حتى استسلمت في النهاية للأمر الواقع، ورضيت أن تعيش مع هذا الراهب عيشة شبه معزولة، تقوم برسالتها في خدمته وتربية أبنائه.!

ولا شك أن هذه الزوجة العظيمة، كانت نظرتها للكتب نظرة المُبغضات الكارهات، لكنها في نفس الوقت، نستطيع أن نقر ونقول: إنها ساهمت رغم هذا البغض في خدمة الثقافة والمكتبة العربية، فقد أنجب أحمد أمين عشرة من الأبناء، مات اثنان وبقي ثمانية، استطاعت هذه المرأة أن تقف بجواره في تربية هؤلاء الأبناء الكُثر، حتى أنه ومن تابع حاله كان يتعجب: كيف استطاع أن يؤلف ما ألف، ويكتب ما كتب، ويقرأ ما قرأ، مع ما تتطلبه تربية الأبناء من مسؤولية شاقة، وجهود لا تنتهي.؟!

لكننا لا شك الآن، نعرف السبب الذي يُبطل به هذا العجب، والذي يتمثل في هذه الزوجة العظيمة الكريمة، التي حملت عنه الأعباء، وتركته معزولاً في عالمه أغلب وقته، يُسامر كتبه وأوراقه، واكتفت بإشرافه على التربية العلمية والسلوكية لأولاده.

علمني أحمد أمين معنى الرفق واللين، بل علمني معنى الأديب أن يكون صاحب أخلاق وقيم وفضيلة، وأن يكون قلمه خلوقا ساميا عن اللغو والطعن والفحش والسباب واللعان حتى ولو كان في قضية له الحق كل الحق فيها فالدب فوق كل شيء وخارج كل حساب.

انظر هنا.. ماذا لو رأيت أمامك من يسب وطنك ويشين بلدك، ثم وجدت قرينا لك وقد أخذته الحمية فثار عليه وسبه بأقذع الألفاظ، ورد عليه بفاحش الكلمات؟

لا شك أنك وقتها وكل من يرون هذا المشهد، سيحكمون على هذا الثائر أنه وطني حر، وفتى بار أنجبه هذا الوطن.

لكنني والحق يقال، لي نظرة أخرى وتقييم مختلف، فإنني حينما أرى الأدب ينهدم والخلق تتداعى ركائزه، لا قيمة وقتها عندي لأي شيء، فمن لا يدرك قيمة الأدب ومقام الفضيلة، لا يدرك معنى الوطنية، ويمكن لك باختبار يسير أن تبصر حقيقة هذه المشاعر الوطنية الزائفة، في نفس هذا الثائر الصفيق وأمثاله، فما عليك إلا أن تقول له وتخبره: بأن الوطن يحتاج منه أن يتبرع بجزء من ماله، أو أن يضحي في سبيله بجزء من جسده، ساعتها فقط سوف تملأ شدقيك بالضحك، وأنت تجلس متمددًا على أريكة الساخرين، لأن هذه الثورة وهذه العصبية، ستتحول إلى رماد هش، تعصف به حفنة يسيرة من الهواء، أو تُؤول كما وصف القرآن الكريم هباءً منثورًا.

الفضائيات اليوم تعج بإعلاميين، لا صنعة لهم إلا السباب واللعان، حتى تتخيل أن قلوبهم شعلة من الوطنية، ولكنهم قد لا تعنيهم إلا مصالحهم الذاتية، ومطامعهم الشخصية، ويحتاجون لجرعات ثقيلة من الأدب، حتى لا يلقوا في وجدان الناس هذا السقوط الأخلاقي المريع.

لقد جاءني هذا الخاطر وأنا أقرأ كتاب فيض الخاطر للكاتب الكبير القديم (أحمد أمين) وفي مقالة من الكتاب تحت عنوان (صفحة سوداء) أخذ الراحل يستعرض ذلك التاريخ الذي شان مصر والمصريين، وذكر من أخلاقهم ما يعيب أهلها ويذم سكانها، وينسب لهم الجبن الدعة والرقة والمذلة، لقد كتب المؤرخون كلاما تخجل منه الأجيال المصرية في كل عقد وزمان، وأبهرني في الرجل أنه كان مهذبا حكيما عاقلا راشدا، كان يناقش كل الشبهات والتهم ويرد عليها ويقابلها ببعضها، ويظهر نقاط تناقضها، لم يسب ويلعن، أو يطنطن بشعارات زائفة لا تعبر إلا عن عصبية جوفاء، لقد حفظ مقام كل عالم ومؤرخ، نسب لبلادة نسبة لا تليق، فمنهم ابن خلدون والمقريزي والسيوطي، كلهم نسبوا الذلة والرقة والجبن لمصر والمصريين.

ولعل هذا هو الذي دفع بعض الوضاعين أن يروجوا لحديث مكذوب بأن جند مصر هم خير أجناد الأرض، وهو قول باطل لا تصح نسبته إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد رد أمين على ابن خلدون بأنه كانت فيه حدة الطباع، وكان ينظر بها للمصرين لأنهم طباعهم لينة، فحكم بطبعه على طبعهم، ورد على المقريزي بأن قوله متناقض حينما ذكر أن بعض المصريين أبطال شجعان وأن منهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، فكيف إذن يستقيم الفهم، وتقبل القاعدة الشذوذ، فالقواعد التي وفرت الجبن والذلة والرضا بالضيم في المصريين لا تستثني أحدا.

ثم لفت أمين في رده إلى سحر التربية وقوتها وقدرتها على تغيير الطباع، فهي أقوى بكثير من قوى الطبيعة.

كما رد فرية فرعون حينما قيل: إنه لما خرج، خرج معه أشراف الناس وعلية القوم، ولم يتبق إلا العبيد الأذلاء،، فقال أمين: إن المصريين قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة الروم

والعرب والترك، ذابوا في مصر واختلطوا بأهلها، فلم يغلب الذل العزة، وعهدنا دومًا غلبة الأعزاء.. ردود علمية، وحوارات منطقية، بعيدة كلها عن اللعن والسب، والتطاول وسوء الخلق، وتسفيه الخصوم.

ما أجدرنا أن نتعلم الأدب كثيرًا، حتى تتوجه مشاعرنا وعواطفنا في سياج بهي من الأخلاق السامية، وما أجدر أصحاب الأقلام أن يلزموا الأدب فيما ينطق به قلمهم، لأن القلم لا يليق به غير الأدب والخلق والترفع، تماما كما رأينا وتعلمنا من حياة أمين وقلم أمين وفكر أمين.

أمير الشعراء

تعلمت من أمير الشعراء أحمد شوقي، أن الموهوب الذي يرجو الثقافة، لابد أن يعمل على تثقيف نفسه ويصقلها بما يستدعي تدفق هذه الموهبة، من القراءة وحضور المنتديات والمسارح ومجالسة الشعراء والعلماء، ففي فترة إقامته في باريس، كان يقضي معظم لياليه في مسرح (الكوميدي فرانسيز) كي يزداد علما في الفن المسرحي، لأن هذا المسرح هو أرقى المسارح الكلاسيكية العالمية، التي تمثل فيه أهم الروايات المسرحية الشعرية، التي ألفها كبار الشعراء الفرنسيين المعاصرين والقدماء.

كان شوقي يواظب على الذهاب إلى هذا المسرح العتيق، لأنه كان يفكر أن نظم مسرحيات شعرية ، وقد ساقه ذلك وأعانه فعلا أن ينشئ مسرحية شعرية في شبابه، وهي مسرحية (علي بك الكبير) التي أعاد نظمها وصياغتها في عام ١٩٣١م.

تعلمت من شوقي أن المطالعة الغزيرة تثمر الثقافة وتزيد المعرفة، بل تعلمت منه أن أحث أبنائي على المطالعة، لما أعلم فيها من الفائدة العظيمة لعقولهم وأفهامهم، فقد كان يحث أبناءه على مطالعة جريدة (الطان) كبرى الصحف الفرنسية، قائلا: إن في مطالعتها فائدة عظيمة؛ ففيها مقالات قيمة جدًا في العلوم والمعارف والآداب، وبخاصة في السياسة الخارجية، وكما

يؤكد أنه هو نفسه استفاد منها كثيرا، إذ واظب على قراءتها طوال مدة إقامته في فرنسا، حينما كان طالبا بها.

لقد تعلمت من شوقي وفي حياته الخاصة، أن العبقري إنسان طبيعي كأي إنسان، وليس معنى أنه عبقري أنه ملائكي الحياة معصوم من المعايب والأخطاء، ومن ثم لابد لي أن أوازن وأن أفصل في النظر بين عبقرية الإنسان، وبين حياته الشخصية العادية، وطباعه البشرية، ولا أسمح لهذه أن تلغي هذه.

بل تعلمت كذلك كيف يمكن للمرأة أن تقوم بدور عظيم في خدمة الأدب، لو أنها رعت بجهدها ورعايتها هذه الموهبة، ووفرت لها كل سبل الراحة التي تؤهلها للإبداع، وهو ما كان من زوجة شوقي رحمه الله.

قال ولده حسين في كتابه أبي شوقي: " كانت أمي رقيقة إلى حد بعيد، حتى أن أبي كان يشبهها بقطة عرفها في أنقرة بسبب هذه الرقة والترفع.. وإذا كان أبي قد وفق في حياته الأدبية، فأكبر الفضل راجع إليها بسبب خلقها هذا، وبسبب طيبتها التي لا حد لها، فهي لم توجه إليه لوما في حياته مرة، مع أنه كان خليقًا باللوم، فقد كان كثيرًا ما يستصحب وقت الظهر أصدقاء حين عودته إلى المنزل، فيتغدى معهم ليتركها تتغدى وحدها، وأما العشاء، فكان يتناوله معظم الأحايين في الخارج.. وكان كذلك سريع التقلب كالمحيط، فطعام لم يهيأ كما رغب يعكر مزاجه.

تعلمت من شوقي حب الوطن والحنين إليه والأسى على فراقه، فحينما سمح له بالعودة من النفي في إسبانيا عام ١٩١٩ م سافر متعجلا وحنينه يسبقه، وقال في ذلك شعرا جميلا يصف به هذه اللقيا:

وياوطني لقيتك بعد يأس ** كأني قد لقيت بك الشبابا

تعلمت من شوقي فرحته بأبناء وطنه، الذين كللهم رداء الوعي والحرية، وصارت فيهم القوة الكبيرة والشجاعة العظيمة، التي تؤهلهم أن يقفوا في وجه المستعمر الغاشم،

ويرفضوا وجوده ويسعون إلى خلعه من وطنهم، وها هو يقضي نبأ هذه المعجزة على صديقه المرحوم عثمان باشا غالب الذي مات في باريس فيقول:

عُـثـمـانُ قُـم تَـرَ آيَـةً ** اللهُ أَحـيـا المـومِـيـاتِ
خَـرَجَـت بَـنـيـنَ مِـنَ الثَـرى ** وَتَـحَـرَّكَـت مِـنـهُ بَـنـاتِ
وَاِسـمَـع بِـمِـصرَ الهاتِـفي ** نَ بِـمَـجـدِهـا وَالهاتِـفـاتِ
وَالطـالِبـيـنَ لِحَـقِّهـا ** بَـيـنَ السَكـيـنَـةِ وَالثَـبـاتِ
وَالجـاعِـلـيـهـا قِـبـلَةً ** عِـنـدَ التَـرَنُّمِ وَالصَـلاةِ
لاقَـوا أُبُـوَّتَهُـم ** غُـرِّ المَـنـاقِـبِ وَالصِـفـاتِ
حَـتّـى الشَـبـابُ تَـراهُـمُ ** غَلَبوا الشُيوخَ عَلى الأَناةِ

بل تعلمنا من شوقي غرامة وحبه لوطنه والمشاركة في كفاحه وجهاده، وهي درجة وحالة تدل على وطنية جارفة، فقد ساءه أن يكون بالمنفى ولم يشترك في الثورة المباركة، ويظهر هذا الأسف في قصيدة نظمها في إحدى ذكريات ١٣ فبراير فيقول:

يَومَ البُطولَةِ لَو شَهَدتُ نَهارَهُ لَنَظَمتُ لِلأَجيالِ ما لَم يُنظَمِ
غَنَت حَقيقَتُهُ وَفاتَ جَمالُها باعَ الخَيالِ العَبقَرِيِّ المُلهَمِ
لَولا عَوادي النَفيِ أَو عَقَباتُهُ وَالنَفيُ حالٌ مِن عَذابِ جَهَنَّمِ
لَجَمَعتُ أَلوانَ الحَوادِثِ صورَةً مَثَّلتُ فيها صورَةَ المُستَسلِمِ

تعلمت من شوقي فن التشجيع والتحفيز، بل فن إنقاذ المحبطين من مهاوي اليأس والقنوط، فقد جاءه زاره الموسيقار محمد عبد الوهاب يوما، وعلى وجهه مسحة من الحزن والألم، فسأله شوقي عن السبب، فأخرج محمد عبد الوهاب من جيبه بعض المجلات التي كانت تهاجمه، فقال له شوقي: لا تحزن بل يجب أن تسر من ذلك، لأن النقد يرفعك، ويزيد في شهرتك، وسأثبت لك ذلك عمليًا، ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك، ففعل محمد فقال له شوقي باسما: ألم أقل لك إن النقد يرفعك؟!

تعلمت من شوقي إيمانه العظيم بالمرأة ومكانتها وقيمتها في صناعة المجد للأمم، بل تعلمت منه حب المرأة زوجة وبنتا وأختًا، وأن تنال من القلب أكثر وأوفى مما يناله الأبناء الذكور، فحينما نظم قصيدة في حفيدة الأول أحمد ابن ولده علي، فإنه قال في ابنته شعرًا أكثر بكثير مما قاله في أبنائه علي وحسين، فقد قال فيها:

أمنيتي في عامها ... الأوّلِ مثلُ الملكِ
صالحةٌ للحبِّ منْ ... كلٍّ، وللتَّبَرُّك
كم خفقَ القلبُ لها ... عِندَ البُكا والضَّحِك
وكم رَعَتْها العَيْنُ في ... السكونِ والتَّحرُّكِ
فعندها من شدّةِ الإشفاقِ ... أن تأخذ الصغيرَ بالخناقِ
فإن مَشَتْ فخاطِري ... يسبقها كالمسكِ
أَلحَظُها كأَنها ... من بَصَرِي في شَرَك
فيا جَبينَ السَّعْدِ لي ... ويا عُيُونَ الفَلَك
ويا بياضَ العيشِ في ... الأيامِ ذاتِ الحلكِ

بل تعلمنا من شوقي أن البنت أشد حنوا بأبويها من الولد، وهو ما ذكره في رثائه للوزير الكبير مصطفى فهمي باشا الذي مات ولم ينجب غير بنات حيث قال:

أَأَبا البَناتِ رُزِقتَهُنَّ كَرائِماً وَرُزِقتُ في أَصهارِكَ الكُرَماءِ
لا تَذهَبَنَّ عَلى الذُكورِ بِحَسرَةٍ الذِكرُ نِعمَ سُلالَةُ العُظَماءِ
وَأَرى بُناةَ المَجدِ يَثلِمُ مَجدَهُم ما خَلَّفوا مِن طالِحٍ وَغُثاءِ
إِنَّ البَناتَ ذَخائِرٌ مِن رَحمَةٍ وَكُنوزُ حُبٍّ صادِقٍ وَوَفاءِ
وَالساهِراتُ لِعِلَّةٍ أَو كَبرَةٍ وَالصابِراتُ لِشِدَّةٍ وَبَلاءِ
وَالباكِياتُكَ حينَ يَنقَطِعُ البُكا وَالزائِراتُكَ في العَراءِ الناءِ
وَالذاكِراتُكَ ما حَيِينَ تَحَدُّثاً بِسَوالِفِ الحُرُماتِ وَاللَآلاءِ

كما تعلمت من شوقي إيمانه بتعليم المرأة فها هو يقول:

وإذا النساءُ نشأنَ في أُمِّيَّةٍ رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخمولا

ليس اليتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ من همِّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذليلا

فأصابَ بالدنيا الحكيمةِ منهما وبحسن تربيةِ الزمانِ بديلا

إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقَى لهُ أُمًّا تخلَّتْ أو أبًا مشغولا

تعلمت من شوقي حب الإسلام وحضارته، والرثاء لآثاره، التي كلما رأتها العين تبكي مجدا مضى، وعزا خلا، فها هو يزور دمشق ويدخل مسجدها الأموي التاريخي، وهناك يبكي كما بكى حينما زار جامع قرطبة في إسبانيا، ينعي بني أمية والأمجاد الذين شيدوا المسجدين ، وإذا به يترجم من ذلك شعرا فيقول:

مَرَرتُ بِالمَسجِدِ المَحزونِ أَسأَلُهُ هَل في المُصلى أَو المِحرابِ مَروانُ

تَغَيَرَ المَسجِدُ المَحزون وَاختَلَفَت عَلى المَنابِرِ أَحرارٌ وَعِبدانُ

فَلا الأَذانُ أَذانٌ في مَنارَتِهِ إِذا تعالى وَلا الآذانُ آذانُ

آمَنتُ بِاللهَ وَاستَثنَيتُ جَنَّتَهُ دِمِشقُ روحٌ وَجَنّاتٌ وَرَيحانُ

تعلمت من شوقي عظم العاطفة لمن نحب، وقد كان في هذا المنحى آية وحده، بل آية غريبة على غرار ما يفهم القوم ويألفون، وصلت العاطفة عنده إلى حد الحساسية، التي تسوقه ليفر من الحزن، ومن كل ما يسبب له فيه إرهاق الروح، خاصة إذا كان حزنا على فقيد حبيب وقريب.

انتقده أقاربه يومًا لأن أخته ماتت ولم يحضر ليالي المأتم، ولم يكن تخلفه هذا تخليا عن تأدية الواجب، أو عدم اكتراث بأخته، وإنما تعجب كل العجب، لو علمت أن هذا التخلف كان من فرط حبه لها، حساسية شديدة تجبره أن يبتعد عن أي موطن تنهار فيه عاطفته تجاه من يحب، ليظل تعيسًا حزينًا.

وكان ذات الشعور الغريب عندما يمرض أحد أبنائه مرضا شديدا، فقد كان يهرب من البيت، وقد يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك حتى يزول الخطر، ولما توفيت والدته بحلوان وهو في المنفى بإسبانيا، رثاها بمرثية طويلة، ثم طوى هذه المرثية فلم ينشرها طوال

حياته، لأنه من فرط حساسيته وتأثره بها، تحاشى أن ينظر إليها فيما بعد، وهي القصيدة التي مطلعها:

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما ** أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى

ولما عاد من المنفى إلى مصر، لم يطق أن يذهب إلى حلوان كلها، حيث ماتت أمه المحبوبة.

تعلمت من شوقي رحمه الله رقة مشاعره ورقي إحساسه، ووفائه لأقربائه وإحسانه إليهم وقربه منهم وصلة أرحامهم، فقد كان له ابن خاله مريضًا بالسل، وكان المرض متقدما، ومع ذلك كان شوقي يذهب إليه ويجلس معه أوقاتا طويلة، ويتناول معه الطعام والشراب، مع استعماله لنفس الأواني والمغارف حتى لا يشعر ابن خاله بما يؤلمه.

تعلمت من شوقي أن الدراسة والقراءة والإقبال على العلم، تصقل الموهبة وتغذي الإبداع، وتحدث نقلة كبيرة وتغيرا مشهودا في حياة المثقف المبدع، فحينما استقر في برشلونه في رحلة نفيه، واستقر به الحال والعيش، واندمج في البيئة المحيطة به، وهنا وأمام هذا الفراغ في مجتمع ودنيا غريبة عليه، كانت فرصة ساقته ليعكف على دراسة كتب الأدب العربي، فاستوعب منها مالم يكن قد استوعب من قبل، وطالعها كلها حتى أنه كان يقول: "إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنوات التي قضيتها منفيا في إسبانيا.. وساعدني على ذلك طبيعة الجو اللطيف الذي يشبه جو الإسكندرية، وجمال المناظر التي تحاكي ضواحي الآستانة في رشاقتها ونظامها.

يقول (شوقي) وهو يتحدث في حواره بمجلة الهلال عام ١٩٢٩م عن تلك الفترة، وأثرها على تكوينه الأدبي، ونبوغه الشعري: "في هذا الجو وفي هذا الوسط الكريم، نشأت نشأة أخرى في الأدب العربي واستأنفت دراستي له بعناية واهتمام، وتوفرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل"

كانت هذه الرحلة هي السبب الكبير في تطوير شعر شوقي ورؤاه، وجنوحه إلى مناح أخرى، لم تهدم القديم أو تتبرأ منه، ولكنها كانت إضافة جديدة لهذا الشاعر العملاق، نعم كانت هذه الرحلة أو هذا النفي القسري عن وطنه وقومه التي يسرت له وحدة، كانت هي

الحادث الأخطر في حياة شوقي على أدبه وفنه وإبداعه وشخصيته كلها.! وكأن الاستعمار بهذا العقاب قد خدم الأدب والشعر، وزان وأصقل بظلمه وصلفه وطغيانه.. بيان أمير الشعراء.

تعلمت من شوقي أهمية الأخلاق في حياة الأمم والشعوب والأفراد، فهي حبل النجاة وميثاق الشرف الإنساني، والحياة بين البشر بدونها تتحول لغابة موحشة، ومن هنا كان شوقي كثير التنويه بقيمة الأخلاق، فقد أكثر من ذِكرها والحثِّ عليها، فبها تحيا الأمم، وبها يسعد الأفراد، وله فيها بيتٌ لا نعرف له ضريعًا في كثرة الاستشهاد به: يوُرده الخطباء في خطبهم، ويضمنه الشعراءُ قصائدَهم، ويُردِّده الناسُ في أحاديثهم، وهو:

وإِنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بقيتْ ** فإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهم ذهبوا

وقد يُعيد هذا المعنى مرارًا لترسيخه في العقول وطبعه في النفوس، فيقول تارةً:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقِهم فأقِمْ عليهم مأتمًا وعَويلا

وتارةً:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عدَّتهم حتى يكونوا من الأخلاقِ في أُهُبِ

ومرة أخرى:

تخلَّقِ الصفح تسعَدْ في الحياةِ بهِ فالنفسُ يُسعِدُها خُلْقٌ وَيُشقيها

فعليها تُبنَى الممالكُ وتشادُ:

على الأخلاقِ خطُّوا الملك وابنوا** فليس وراءَها للعزِّ ركنُ

وبها دون سواها ترتقي الشعوب:

وليسَ بعامرٍ بنيانُ قومٍ ** إذا أَخلاقُهم كانت خرابا

وإذا هي سلمتْ فكلُّ شيءٍ سالم:

ولا المصائبُ إذ يُرمَى الرجالُ بها بقاتلاتٍ إِذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

أمَّا طريقتُهُ في النصح والإرشاد فالملاينة والتلطف:

آفَةُ النصحِ أنْ يكونَ جَاجًا وأذى النصحِ أن يكونَ جِهارا

ولا سيما إذا كان النصحُ موجَّهًا إلى الشبان:

قُلْ للبنين مقالَ صدقٍ واقتصدْ ذرعُ الشبابِ يضيقُ بالنصَّاحِ

ويجب أن يوجَّه النصحُ إلى العقل حينًا، وإلى القلب حينًا آخر:

والنصحُ متَّهَمٌ وَإِنْ نَثَرَتْهُ كالدرِّ الشفاهْ

أُذنُ الفتى في قلبهِ حينًا، وحينًا في نُهاهْ

ويقتبس غالبًا حكمَه ونصائحه من حوادث التاريخ:

واقرءوا آدابَ مَنْ قَبلَكم ربَّما علَّم حيًّا من غَبَرْ

فالتاريخ أبو العبر، ولا سيما تاريخ مصر:

إِنَّ مصرَ روايةُ الدهرِ فاقرَأْ ** عبرةَ الدهرِ في الكتابِ العتيقِ

تعلمت من شوقي حب الإسلام والتغني بمآثره ورموزه وحضارته، وهي المعاني التي شعت في كثير من قصائده، لقد "تغنَّى بالإسلام غناءً جزلًا فخمًا، بلا تصنُّعٍ ولا تكلُّف، بل عن عقيدةٍ وإيمان، فكستْ عقيدته نظمَه حلَّةً قدسية، وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالةً نورانية".

إنه يقول معتزا بالإسلام:

آياتُهُ كلَّما طال المدى جُددٌ يَزينُهنَّ جلالُ العتقِ والقدمِ

يكادُ في لفظةٍ منه مُشرَّفَةٍ يُوصيكَ بالحقِّ والتقوَى وبالرَّحِمِ

يا أفصحَ الناطقينَ الضادَ قاطبةً حديثُك الشهدُ عندَ الذائقِ الفَهِمِ

حَلَيْتَ من عَطَلٍ جيدَ البيانِ بهِ في كل منتثرٍ في حسن منتظمِ

يا «أحمدَ» الخيرِ لي جاهٌ بتسميتي وكيفَ لا يَتسامَى بالرسولِ سميِّ

وها هو يَفخَرُ بدول الإسلام:

دَعْ عنك «روما» و«آثينا» ومَا حَوَتا كلُّ اليواقيتِ في «بغداد» والتُّوَم

وخلِّ كسرى وإيوانًا يُدِلُّ بهِ هوى على أثَر النيران والأيمِ

دارُ الشرائِع روما، كلما ذُكِرت دارُ السلامِ لها ألقت يدَ السلمِ

ما ضارعتها بيانًا عند مُلتأَمٍ ولا حكتها قضاءً عند مُختَصَمِ

ثم بملوك الإسلام:

ولا احتوت في طرازٍ من قياصرها على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعتصِمِ

من الذين إذا سَارت كتائبُهم تصرَّفوا بحدودِ الأرضِ والتُّخُمِ

ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ فلا يُدَانَونَ في عقلٍ ولا فَهَمِ

وإذا انتصرت دولةٌ من دول الإسلام ترنَّح طربًا ورنَّح الشرقَ معه:

وأرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجاز وكم قضى الليالِيَ لم يَنعَمْ ولم يَطِبِ

وازَّينت أُمهاتُ الشرقِ واستبقَتْ مَهارِجُ الفتح في الموشيةِ القشُبِ

هزَّت دمشقُ بني أيُّوبَ فانتبهوا يُهنِّئونَ بني حَمدانَ في حَلَبِ

ومسلمو الهندِ والهندوسُ في جَذَلٍ ومسلمو مصرَ والأقباطُ في طربِ

ممالكٌ ضمَّها الإسلامُ في رحِمٍ وشيجةٍ وحواها الشرقُ في نسب

يُقدِّسُ الإسلام ويجلُّ تقاليدَه العريقة، وينبري للذود عن الخلافة بجميع جوارحه:

مَنْ قائلٌ للمسلمين مقالةً لم يُوحِها غيرُ النصيحةِ واحِ

عهدُ الخلافةِ فيَّ أولُ ذائدٍ عن حوضها بيراعِهِ نضَّاح

حُبٌّ لذاتِ اللهِ كان ولم يَزَلْ وهوًى لذاتِ الحق والإِصلاح

وهو لا يُنزِّه المسلمين عن الأخطاءِ والهفوات، ولكنَّ الذنبَ إنما هو ذنبهم لا ذنبُ الإسلام.

من عادةِ الإِسلام يرفعُ عاملًا ويُسوِّدُ المقدامَ والفعَّالا

ظلَمتْهُ أَلْسِنةٌ تُؤَاخِذُهُ بِكُمْ وظلمتموهُ مُفرِّطين كسَالى

هذا هلالُكمُ تكفَّل بالهدى هل تعلمون مع الهلال ضلالا؟

علمني شوقي كيف يهتم الشاعر والمثقف بقضايا أمته وتشغل باله، ويعيش لها ويهتم بها كما يهتم بقضايا وطنه، فقد امتد شعر شوقي بأجنحته كما قيل: ليعبر عن آمال العرب وقضاياهم ومعاركهم ضد المستعمر، فنظم في "نكبة دمشق" وفي "نكبة بيروت" وفي ذكرى

استقلال سوريا وذكرى شهدائها، ومن أبدع شعره قصيدته في "نكبة دمشق" التي سجّل فيها أحداث الثورة التي اشتعلت في دمشق ضد الاحتلال الفرنسي، ومنها:

بني سوريّة اطرحوا الأماني وألقوا عنكم الأحلام ألقوا

وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا

وللأوطان في دم كل حرٍّ يد سلفت ودين مستحقُّ

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يُدَقُّ

علمنا شوقي أن الوطنية المخلصة، تفرض على أصحابها كل صور الوحدة والتعاون، وفاء لهذا الوطن، وأن هذا التوحد في صف واحد، يعني القوة في وجه العدو، وأن أي تحيز للخلاف وإزكاء ناره، يمني أصحابه بخسران قضيتهم وأهدافهم وبلادهم، ويضمن البقاء لعدوهم، فحين رأى زعماء الأحزاب وصحفها يتناحرون فيما بينهم، والمحتل الإنجليزي لا يزال جاثم على صدر الوطن، يصيح فيهم قائلاً:

إلام الخلف بينكم إلاما؟ وهذي الضجة الكبرى علاما؟

وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما؟

وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما

علمني شوقي قيمة الشباب الذين يمثلون أمل الوطن وطموحه، كان شوقي من أكثر الشعراء اهتماما بالشباب وتقديرا لعزائمهم وطموحاتهم، فلم ينفك عن ذكرهم والاشادة بهم في أكثر أشعاره، "وما وجدت شاعرا عربيا معاصرا أولى الشباب اهتمامه ورعايته، وعانى التخاطب معهم، وكابد النصيحة لهم، وألف في إشعاره الحديث إليه، كما فعل أحمد شوقي – رحمه الله – فإن ديوانه يحفل بالشباب، ومدحهم، والأمل فيهم، والنصح لهم، حتى في المناسبات التي قد يكون الخطاب فيها إلى الشباب بعيد الاحتمال. ولمن حب (شوقي) للشباب وتعليق الآمال عليه يجعله يخلق من المناسبة سبيلا إلى الحديث عن الشباب والتحديث إليهم.

وقد تكون المناسبة التي يختارها الشاعر أحمد شوقي للحديث إلى الشباب مناسبة رثاء. وهنا يخرج الشاعر ممن جو البكاء والدموع ومن جو الحزن على الراحل وتعداد مآثره إلى جو الإشادة بالآباء والأجداد شباب وكهولا، ولا يفوته هنا أن يقدم الشباب على الكهول، وهو ترتيب إذا روعي فيه السن والزمن من ناحية، فقد روعي فيه الاعتبار والتقدير ممن ناحية أخرى، كما في مرثيته للشهيد البطل عمر المختار حيث يقول:

تلك الصحاري غمد كل مهند أبلى، فأحسن في العدو بلاء
وقبور موتى من شباب أمية وكهولهم لم يبرحوا أحـياء

وينتهز فرصة استشهاد أحد عشر طالبا في سبيل العلم فيقول موجها نصحه إلى شباب النيل:

ويا نشأ النيل الكريم عزاءكم ولا تذكروا الأقدار إلا بإجمالِ
فهذا هو الحق الذي لا يرده تأفف قال أو تلطف محتالِ
عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس إذا الأعلام خانت بخذالِ
إذا مال صف فاخلفوه بآخر وصول مساع لا ملوم ولا آلِ
ولا يصلح الفتيان لا علم عندهم ولا يحرزون السبق أنصاف جهالِ

وفي رثاء شوقي للزعيم مصطفى كامل الذي اختطفه الموت في سن الشباب يتخلص الشاعر من موقف البكاء إلى موقف إحياء الشعور الوطني بين شبان البلاد، فيقول مخاطبا الفقيد:

أخلع على مصر شبابك عاليًا والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصرا من شبابك ترتدي مجدًا تتيه به على البلـدان
علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان

وما فتئ شوقي في كثير من قصائده مادحا للشباب مشيدا بمآثرهم وجهودهم في خدمة بلادهم، فحين أطلقت مصر سراح المسجونين من الشباب ١٩٢٤ على يد سعد زغلول قال شوقي من قصيدة ألقيت في حفل تكريمهم:

قالوا أَتَنظِمُ للشباب تحيةً تَبقى على جِيدِ الزمان قصيدَا
قلتُ الشبابُ أتمُّ عقدِ مآثرٍ من أن أزيدهمُ الثناءَ عُقودَا

قِبلَت جُهودَهم البلادُ وقبَّلَت تاجًا على هاماتهم معقودا

وطالما حض شوقي الشباب على ركوب العظائم والإقدام على جلائل الأعمال. فهو ينصح الشاب أن يركبوا المخاطر كما ركبها الرحالة أحمد حسنين فيقول:

قل للشباب بمصر: عصركم بطل * بكل غاية إقـدام له ولـع

أس الممالك فيه همة وحجى * لا الترهات لها أس ولا الخدع

إن الشباب غد، فليهدهم لغد * وللمسالك فيه الناصـح الورع

لا يمنعنكمو بر الأبوة أن * يكون صنعكمو غير الذي صنعوا

ولا يدع شوقي مناسبة تمر دون أن ينتهزها بالنصح للشباب، ونصح ولاة الأمور بتربيتهم وبنائهم على أسس متينة من الخلق والدين، وتنشئتهم نشأة صالحة، حتى يكونوا عزا للوطن ودرعا يحميه، ففي قصيدته المشهور التي نظمها لتكريم المعلم والعلم يخاطب المعلمين قائلا:

رَبُّوا على الإنصافِ فِتيانَ الحِمى تجِدوهمُ كهفَ الحقوقِ كهولا

فهو الذي يبني الطباعَ قويمةً وهو الذي يبني النفوسَ عُدولا

وفي قصيدته الجريئة العظيمة التي يلوم فيها رياض باشا على مدحه وتملقه للورد كرومر معتمد بريطانيا في مصر سنة ١٩٠٤، يعاتبه على أنه ترك نصيحة الشبان والطلاب وتحذيرهم من الاستكانة للمستعمر فيقول:

فهلَّا قُلتَ للشبان قولًا يليقُ بحافلِ الماضي الهمامِ

يبثُّ تجاربَ الأيامِ فيهم ويدعو الرابضين إلى القِيامِ

خطبتَ على الشبيبةِ غيرَ دارٍ بأنَّك من مَشيبِك في منامِ

محمد التابعي

محمد التابعي أمير الصحافة الذي تعلمت منه ومن سيرته أن القراءة في الصغر، تثمر العقل في الكبر، وقد قدر لهذا الفتى أن يعرف طريقه للقراءة، فقد كان صبيا مشاغبا، لا تتحمل أمه ما يثيره من ضجة كبيرة، فكانت ترسله إلى مدرسة صيفية، وتعطيه قرشين صاغ قبل

خروجه، ولكنه بدلا من أن يذهب للمدرسة، كان يذهب إلى مكتبة في سوق الخواجات، ويعطي صاحبها قرشين، ليأتيه بمقعد يجلس عليه ويبدأ في القراءة، كان يقرأ هذا الصبي الصغير قصص سيف بن ذي يزن، وألف ليلة وليلة وحمزة البهلوان، قرأ كثيرا من هذه القصص قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره، وكان يعود إلى البيت حاملا حقيبته متظاهرا بالإعياء الدراسي، حتى كان ذلك اليوم الذي بعثت فيه المدرسة خطابا إلى والدته تخبره بتغيبه وتخلفه عن الحضور فترة طويلة، وتعرض لعقاب شديد خاصة بعدما فتحت أمه حقيبته، لتعثر على مجموعة من الكتب والقصص الكبيرة، التي كان قد اشتراها بمصروفه.

علمني التابعي أن الطريق الحقيقي للمثقف هو القراءة، ولا سبيل غيرها لتكون بداية لصاحب قلم قوي جبار، فقد عرف التابعي القراءة للمنفلوطي فيما بعد، شأنه في هذا شأن كل أبناء هذا الجيل وحبهم للمنفلوطي، ثم مال بعد المنفلوطي، إلى قراءة القصص التي وجد فيها بغيته من المسامرات الشعبية، ثم روائع الأدب الغربي المترجمة، والتي تسببت في تفوقه في الإنجليزية.

عملني التابعي أن حب الكتابة والرغبة فيها يمكن أن يتولد من عاطفة حب الوطن وبعض الظلم وغيرها من المشاعر، بل من الممكن أن يتولد من قبيل المصادفة ليحيي ماردا عظيما لم تبد ملامحه في الأفق.

ففي بداية كتاباته وعن تجربته الأولى فيها، وفي أحداث ثورة ١٩١٩م وما تلاها عام ١٩٢١م وما قام فيها من مظاهرات وطنية، كتبت الإجيبشيان ميل مقالا هاجمت فيه المظاهرات، وبأسلوب الشاب المتحمس، اغتاظ التابعي من تلك المقالة، وناول القلم وكتب أول مقال له بالانجليزية، وأرسله للجريدة التي لم تتوان في نشره وفي مكان بارز، وكان ذلك مما شجعه وأثار دهشته في ذات الوقت.

أدرك التابعي وقتها أنه من الممكن أن يستمر، وأنه من الممكن أن يكون كاتبًا، و أن هذه الصدفة أو الأحداث التلقائية التي دفعته لهذه المراسلة، كانت مشجعًا كبيرًا، ودافعًا له ليستأنف الكتابة و يلج عالم الصحافة، و يواصل كتابة رسائله عن الإنجليز و استبدادهم في مصر، واحتكارهم للوظائف الهامة في الدولة، و كانت رسائله تنشر تباعًا من الحروف الأولى لاسمه الثلاثي، إلى أن تكونت صداقة بينه وبين مستر (أوفارول) رئيس تحرير الجريدة، وهو الذي دعاه ذات ليلة لمشاهدة مسرحية «غادة الكاميليا» ل"يوسف وهبي" و "روز اليوسف" بمسرح رمسيس، و لما انتهى العرض كان للتابعي تعليقه الفني على المسرحية وأداء الممثلين و هو ما أعجب (أوفارول) و طلب منه أن يكتب مقالًا ناقدًا للمسرحية، لنشره في مجلة «سفنكس» التي كان يشرف عليها بجانب «الإيجبشيان ميل»، و انزعجت فرقة رمسيس النقد، وكلفت جريدة «النظام» بالهجوم على ما كتبته الصحيفة الإنجليزية، و لما قرأ «التابعي» الجريدة، رأى أن يرد عليها بأول مقال له بالعربية، نشره في جريدة «السياسة» لحزب الأحرار الدستوريين، و يقول عن ذلك: «هكذا بدأت أدخل بلاط الصحافة عن طريق الهواية»، وفي عام ١٩٢٤م يكتب في الأهرام، ليكون دخوله الحقيقي و الجدي لعالم الصحافة، حيث كتب فيها مقالات فنية في النقد المسرحي تحت اسم مستعار ، ثم شجعه النشر في الأهرام على الكتابة لعدد من الصحف مثل (أبو الهول و السياسة و النظام و الإيجبشيان ميل) و كان يوسف وهبي يعجب بمقالاته، وينتظرها حتى و هي تهاجمه وتنتقده ، و وصف كاتبها بقوله: "أنه يسقيني السُم في برشامة!"

علمني محمد التابعي أن المرء ما عليه إلا أن يبدأ فقط مما يتخوف منه، وأنه يمكن أن يكون في جوفه موهبة، لا تستطيع الخروج من تخوفاته التي هي مجرد أوهام، ولو أنه نجح في إزالة هذه الأوهام لتبينت له الموهبة واضحة جلية، هل تصدق أن (محمد التابعي) صاحب القلم الجبار الذي أسقط حكومات وعزل وزراء، وكان الكل يخشاه ويعمل له ألف حساب، لما

يخط من مقالاته سياسية جريئة ناقدة، لم يكن يحب السياسة، ولم يكن يستطيع أن يكتب فيها، ولم يكن يميل إليها؟! إذن فما القصة وكيف كان هذا التحول من كاتب في الفن والتمثيل إلى أكبر وأعظم كاتب سياسي في مصر؟ يأتي ذلك حينما كان يعمل مع (روز اليوسف) في مجلتها الفنية، والتي كانت تخسر باستمرار، فنصحها أحدهم أن تكتب في السياسة حتى تنال رضى القراء، و يقبلون على مجلتها و تحقق النجاح المرجو، ومن هنا كان لابد لهذا التحول أن يتحول معه المحرر الأكبر في المجلة و رئيس تحريرها الأستاذ (محمد التابعي)، من الفن إلى السياسة، لكنه كان يثور لمجرد أن تطلب منه (روز اليوسف) أو أي زميل بالمجلة أن يكتب في السياسة ودواعيها، وكانوا يستقبلون هذه الثورة بالابتسام، حيث يتفهمون موقفه، و لكنهم لم ييأسوا و أعادوا عليه الطلب مرة أخرى، و شجعته (روز) و سهلت له الأمر بقولها: الفرق بين كتابة أخبار السياسة، و أخبار الفن بسيط جدًا -هو فقط- بدلاً

من الكتابة في (يوسف وهبي) تكتب عن (زيور باشا)، و هذه البساطة في الشرح، كانت تثير أعصاب التابعي، لدرجة أنه في ليلة و النقاش حاد حول هذا الموضوع، قال للجميع : "يا اخوانا أنا معرفش أكتب في السياسة ولا أقابل السياسيين " وأسند كتابة هذا الباب لبعض محرري البلاغ، و إزاء هذه المواقف المضطربة بدأ (التابعي) يكتب في السياسة، و فتح بابًا جديدًا تحت عنوان (مسرح السياسة) وكان يعلق فيه على الأخبار بأسلوبه المميز، و شيئًا فشيئًا، تطور الأمر و ظهرت موهبته السياسية، ليصبح أكبر كاتب سياسي مؤثر يتطلع الجميع لرأيه ومقالاته -فقط لأنه بدأ- فهل نبحث لنا عن بداية؟! أم أننا نُحب أن نظل في حيرة مؤرقة، و اضطراب مظلم، نسوّف و نؤجل، حتى يذهب حماسنا و تنصرم عزائمنا و تضيع مواهبنا، و تتكسر أحلامنا و نخسر مستقبلنا!

علمنا محمد التابعي معنى أن يكون الكاتب وطنيًا مخلصًا لبلاده وشعبه، وأن يهب في سبيل هذا الوطن قلمه وخواطره، ولا يخشى في سبيل الحق لومة لائم، ولا رهبة ملك ولا سلطان، لقد كان حقا ذلك الكاتب الشجاع العظيم بما تحمله هذه الكلمة من معان.

ففي مقاله الشهير عام ١٩٥٠م كتب أمير الصحافة (محمد التابعي) تحت عنوان (يحيا الظلم) حيث قال فيه يهاجم الملك فاروق: "نعم يحيا الظلم، ظلم كل جبار عاتية، معتز بسلطانه وسطوته، يدوس القوانين ولا يبالي، وظلم كل كبير فاسق، وكل عظيم فاجر، يسرق ولا يبالي، ويختلس ولا يبالي، ويثلم الإعراض ولا يبالي.. ويهدر الكرامات ودم الوطن ويجعل من مصر أمثلة السوء، وبصقة كريهة في فم الزمن، نعم يحيا الظلم، ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه، وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه، وظلم كل عابث ماجن مستهتر إباحي يضرب للناس أسوأ الأمثال.. نعم يحيا الظلم لأنه مرب للنفوس، ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد، لقد صبرنا طويلا، ولن نصبر بعد اليوم، وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم."

لقد قرأ فاروق هذا المقال، وأشار على هذه العبارات الساخنة التي سبق ذكرها، ثم سأل بعض حاشيته ورجال ديوانه، من العظيم الفاجر الذي يسرق ويعتدي على الأعراض؟ فسكتوا ولم يجيبوه، وعاد يسألهم: من الذي يعنيه ويقصده التابعي؟ ولم يجب كذلك أحد بشيء، فابتسم ابتسامة صفراء، لأنه عرف من سكوتهم أنه المقصود.

علمني التابعي أن الصحفي والكاتب، عليه أن يتذكر أنه قبل كونه كاتبًا يُمسك قلما، أنه إنسان يحمل مشاعر، ولابد لهذا القلم أن يحمل من معين هذه الإنسانية في مداده، فلا يتحرك بسنانه إلا بإشعار من قلب الإنسان.

لم يفت التابعي وهو أمير الصحافة أن يضع الموازين الإنسانية لمن يعملون بهذه المهنة.!

لم يفته أن يُعلِّم من بعده أن الإنسانية فوق كل شيء وقبل كل شيء، لقد اشتغل بالصحافة عقودًا طويلة، وعرف فيها عشرات الزعماء والسياسيين، وكان بعضهم يفضي إليه بأسرار كثيرة أو يكشف أمامه خفايا ضعفه، فلم يكن يستغل هذا ليروي عنهم ما عرفه واكتشفه وأظهروه له، لأنه كان يعتبر ذلك خيانة للأمانة، ولم ينس أبدا أنه إنسان أمام السبق الصحفي أو النجاح الإعلامي، يقول التابعي: لقد قابلت ملك الأفغان أمان الله مرتين في سويسرا وزيوريخ، وكان كسير الخاطر محطم الآمال، ويمشي تحت وابل من المطر لكسر الوقت حسب تعبيره، كتبت عنه مرتين ورويت الحديث الذي دار بيننا، إلا جزءًا خاصًا بزوجته السابقة الملكة ثريا، وهذا أبقيته حتى اليوم في صدري وكتمته ولم أنشره، لأنني لم أستطع أن أنسى قبل أن أكون صحفيًا أنني إنسان، وفاروق الطاغية لا أستطيع أن أكتب وأروي عنه لأنني إنسان، لقد قاومته وحاربت طغيانه قدر ما استطعت وهو ملك وحاكم بأمره، وكتبت عنه بعد خلعه وطرده، كتبت ولم أرحمه، وأسهبت في سرد قصص مخازيه وفضائحه، ومع ذلك فإنني لم أنس في كل ما كتبت أنني إنسان، فلم أذكر مثلا لماذا بكى يومئذ في دار بالإسكندرية عام ٣٧؟ لم أكتب وأذكر التفاصيل، لأنه بكى ساعتئذ كإنسان لا كملك، هكذا شرح التابعي وعلم سالكي المهنة، ولفتهم لأهم دروسها وواجباتها، أن لا ينسى أحدهم يوما أنه إنسان.

بل علمنا قبلهم هذا النبل العظيم والشهامة السامية التي يجب أن يحيا بها الإنسان، ليحقق معنى الإنسان.

ويحضرني في هذا قول أحد الصحفيين الكبار والذي يوافق فيه التابعي: "إنني أفضل أن أكون إنسانًا ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية، على أن أكون أشهر صحفي في العالم، و لا أكون ملتزمًا بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية "

أيها الصحفي المخدوع ببريق الشهرة وانبهار المجتمع بما كتبت وقصصت، ربما لا تلتفت لكلام التابعي ودروسه وتعتبرها هلوسة لا يقبلها الزمن ولا الأيام، ربما تنحيها خلفك لأنها تعيق مستقبلك الذي لا تراه يقوم إلا على الفضائح والتجريس والتجريح والتعريض، ربما تفعل ذلك، لكنني على يقين كبير أنك يومًا ما ستندم أشد الندم، حينما يحيا ضميرك الميت بقدرة الله، أو يستيقظ من ثباته العميق، لتعض أناملك وتمزق نفسك حزنًا واستقباحًا على ما فعلت وما كتبت.

تعلمت من التابعي أن الناقد المخلص الذي يطرح نقدا مخلصا يسعى وراء الحقيقة وحدها، يثمر خيرا كثيرا، حينما يبصر السالك بكثير من المعايب والمساوئ فيبادر بتسديدها وتلافيها والبرء منها، لقد كان قلم التابعي وهو الناقد الفني، له أكبر الفضل في تطور الحراك الفني والنمط المسرحي وارتقائه، وأنه كان صاحب أكبر فضل في خلق مدرسة النقد الفني التي اشتهرت بأسلوب النقد اللاذع للمسرحيات وأهل الفن، وقد روى أهل الفن ممن عاصروا التابعي أن الممثلات والممثلين في المسرحية التي كان التابعي يشاهدها، إذا علموا بحضوره، ضاعفوا جهودهم، وحرص كل منهم أن يؤدي دوره ببراعة، وقد بلغ من ضخامة قلم التابعي وتأثيره في دنيا الفن أن كانت مقالاته تؤثر على إيرادات الفرق المسرحية، حينما كان الناس يقرؤون ويتأثرون، ويتوقف نجاح كل مسرحية على هذا النقد.

وبفضل هذا القلم القوي الناقد، ارتفع مستوى الأعمال المسرحية والفنية، واجتهد الفنانون في تجديد أعمالهم والاقتباس من الأعمال المسرحية القديمة.

علمنا التابعي أن الناقد الحر المنصف، لا يسعى دائما وراء الهنات ليبرزها ويستقوي بها، ولا يسعى دائما وراء المحامد فيبرزها ويجامل بها، وإنما الناقد الحقيقي الذي يتعامل بشفافية مع كل ما يراه من حسن وقبيح، مخلصا للنقد وحده وللحقيقة وحدها.

فها هو في نقده لمسرحية حور محب عام ١٩٢٤م ، يقول وقد شاء المؤلف أن لا يعارض تيار النهر، فحشر في كل مناسبة وغير مناسبة، تلك الجمل الجوفاء التي يبتاع بها تصفيق الجمهور، ولكنه بثمن بخث، وضع في فم كل ممثل وممثلة شيئا عن مصر، وحب مصر، ومجد مصر، وقوة مصر، ولا تمر عليك عشر دقائق إلا وتسمع مونولوجا أو محاضرة عن مصر، حتى أعداء مصر قام مليكهم، وهو في ساحة القتال يتغنى بمجد مصر، وقوة مصر، ثم قال التابعي: وبعد يا سيدي المؤلف، ألا ترى أنك أسرفت كثيرًا في حب مصر، جميل أن تتغنى بحب مصر، وجميل منك أن تفرح قلوبنا بمجد مصر، وعظمة مصر، ولكن الشيء إذا زاد عن حده، مجه الذوق السليم، وخسر كثيرا من قيمته.

ولما كان هذا النقد مرا، جلا التابعي بعضا من قيمة العمل، ولم يشأ أن يكون كل ما كتب نقدا سلبيا، فقد قام برسم جماليات العمل ومميزاته حينما قال للمؤلف: أرجو أن تتقبل نقدي بصدر رحب، وأن تؤمن بحسن نيتي، وأنني مثلك أسعى قدر جهدي إلى رفع شأن المسرح المصري، وأخيرا أن تتكرم بقبول إجابي الحق ببلاغتك وسلامة عباراتك، حتى لقد كدت في بعض المواقف أن تذهلني برائع البيان عن دقائق الفن، لقد اخترت لروايتك موضوعا مصريًا بحتًا، وهي حسنة كبرى تميل بكفة الميزان.

علمني التابعي أن أشيد بالمواهب الشابة، وأقف بجوار المبتدئين، وأن أقول الحق في نصابه بلا مجاملة أو تلوين، بل علمني أن أشيد دومًا بالجمال إذا رأيته وتحسسته، وهذا ما قاله ورصده في تقييمه للمطرب الشاب محمد عبد الوهاب آنذاك.

يقول التابعي: سمعت به كثيرا قبل أن أراه، فلما عرفته أيقنت أن مادحيه المعجبين به وبفنه، لم يفوه حقه كاملا، وانني لم اسمع عنه إلا قليلا من كثير، لقد عودت نفسي الحيطة والحذر في كل ما اكتب، وان لا أتورط في مديح أو هجو، ولكنني اليوم، أقول عن الوهاب، إن له أجمل

صوت سمعته، وإنه أصدق ملحن عرفته، سمعت به وذكرته بعض الصحف بالخير، فتاقت نفسي الى معرفته وطلبت من صديق لي وله أن يجمعني به ففعل، وكان ذلك غداة ليلة أحياها نادي الموسيقى الشرقي، وإذا بي أمام فتى في أول ربيع العمر، نحيف البنية، ليس بالطويل ولا القصير، عريض الجبهة، ينبعث من عينه نور الذكاء، يعلو وجهه القمحي اللون المشوب بصفرة خفيفة نور الأمل الواسع والثقة بالمستقبل - قلت له مبتسما: عرض لي أمس ما منعني عن الذهاب لسماعك في نادي الموسيقى، ولكني سمعت أنك فتنت الناس، واستحوذت على قلوبهم حتى كثر أنصارك وحسادك، فقال: حسبك قلت: فهل ترى تهيأ لي فرصة ما، أن القي بعدها مديحي في تيار مادحيك وإما .. فضحك وقال: حبا وكرامة إن شاء الله . وشاء الله أن يكون ذلك.

ثم قال: وكان لتوقيعه حلاوة خاصة جعلتني أوقن التي في حضرة موسيقى بالفطرة، لامقلد ماهر ، علت الانغام وتجمعت وتدافعت ثم سكنت ثم تهادت، وأخذ عبد الوهاب يغني أغنية من تلحينه عن الحب والغيرة والعتاب والأمل و .. و . إلى أن قال التابعي: وأدار بعضنا وجهه ليمسح دمعة سالت على خده، وقمت من مقعدي، ولثمت جبين الفتى وقلت له: أبقاك الله سلوى وعزاء لساهري ليل الشوق، والسبابة والتذكار، ومؤنسا لأبناء الوحدة إذا عز الرجاء وضاق الأمل .

ثم يقول الأستاذ التابعي، لا يشك من يسمع أنغام عبد الوهاب من وراء باب مقفل، ان صاحب هذه الأنغام فتى من ميعة الشباب ونفرة الصبا طاهر القلب عامر الصدر بالحنان والوجد، صادق العاطفة لا يعرف التكلف ولا التصنع، ولا ينحو في تلحينه وغنائه لحو سابقيه، ومعاصريه من الذين يلحنون أغاني الحب في قطارات الترام ومشارب القهوة

ويتغنون بالغرام، ويتوجعون الذكرى ليالي الحب وعلى وجوههم ابتسامة عرضها ما بين الأذنين.

محمد عبد الوهاب موسيقى وشاعر لا من حيث القوافي والأوزان وصناعة الشعر، وإنما من حيث دقته في تصوير الانغام، ودقته في التعبير عن معاني الألفاظ، نسمع منه الأغنية من تلحينه، فاذا به قد جعل للسرور لونا وللحزن لونا وللجمال لونا وللعب لونا وللغيرة لونا، تلحينه وغناؤه إنما هو مناجاة القلب للقلب والروح للروح، هذا هو فن عبد الوهاب.

ويمضي الأستاذ التابعي حديثه عن الموهبة الصاعدة: تذكرت أن النبوغ طالما يوجد في مثل هذا الشباب من أبناء الفضيلة والاجتهاد الذين لم يغمرهم الله بالمال الكثير، وقلت لنفسي: من يطلب المال لتكوين نبوغ مزجي فلا يجده، وآخر ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وقد ينفق عليه أهله المال الكثير ليكون من الضالين؟ حارث الأقوام في تقسيم الحظوظ، لحكمة يفعل الله ذلك.

علمني التابعي معنى الحب الحقيقي للوطن والمتمثل في حب المواطنين، فهو حينما رثى سعدًا، كان يعبر في المقام الأول عن حبه لوطنه، لأن سعدا كان الأمل للوطن والأمل للمواطنين.

بعد وفاة سعد خصصت روز اليوسف بضع صفحات عن سعد زغلول، وكانت الافتتاحية بعنوان : أحقا مات سعد ؟ وأجاب التابعي فيها على هذا التساؤل برؤية خاصة وفلسفة عالية تجلي معنى الوطنية الحقيقية بقوله : تركتنا يا سعد، والأفق حالك والطريق شائك وامر البلد في كفة الميزان، فهلا لبثت حتى أبلغتها شاطئ السلامة، وأسلمت لمستقبلها الأمان، ما رضيت يا سعد ان تدعنا قبل أن يحقق ما استودعناك من أمالنا، ولكن أرغمك القدر، فليس لنا إلا أن نحني رؤوسنا تسليما بما فعل القدر، وارحمتاه لنا، أهذا ما جرى به علينا القلم ؟

أهذه هي الغاية التي أرصدها لنا القدر ؟ أهكذا يعصف بآمال أمة من حيث لاتحتسب، اللهم كما قبضت منا سعدا، فانشر علينا رحمتك ودبر أمرنا بحكمتك وأثر الطريق بين أيدينا فلا تضل أحلامنا، ولا تزل أقدامنا، وألف بين قلوبنا حتى شير الى غايتنا ، صفا واحدا يقوده روح سعد ، كما كان يقودنا في الحياة سعد ، اللهم ارحم سعدا بقدر مصيبتنا فيه ، وارفع درجته عندك كما رفع امته في خلقك وزد في أجره جزاء ما بذل لقومه، مما لا يلحقه الوصف ولا يرتفع إليه الحساب.

ثم يعلمنا التابعي ومن موت سعد ذلك المعنى الحقيقي لحب الوطن والتمثل في حب الشعب والعمل لمصلحته ومصالح مواطنيه، ففي ٦ أكتوبر ١٩٢٧ ـ يكتب التابعي: مات سعد فاهتزت مصر ، من أقصاها إلى أقصاها وتفجرت من العيون دموع لو تجمعت لكانت سيلا جارفا ، ولكن هل فكر احد في الإحسان او التبرع، إلى إحدى المنشآت الخيرية حبًا في سعد، وصدقة على روح سعد، نائب واحد لا يحضرني اسمه تبرع غداة اليوم المشئوم بعشرين جنيها إلى أحد الجمعيات الخيرية، والباكون والباكيات واللاطمون الخدود واللاطمات وهم وهن مئات وألوف ، هل فكر احد منهم في إطعام جائع حبا في سعد او كساء عار حبا لسعد ، أو إيواء غريب شريد حبا في سعد ، هل فكر أحد منهم بالتبرع بقرش أو جنيه إلى احدى الجمعيات الخيرية التي تطعم الجائع ، وتكسي العاري اليتيم وتأوى الغريب المسكين اسهل عليهم أن تخرج المحاجر كل ما اختزنت من دمع، حبا لسعد ، أما ان يخرج الجيب بعض ما فيه حبا بسعد فلا!!

وكأن التابعي بهذا الاقتراح، قد رد المشاعر إلى الحب الحقيقي، وهو حب مصر، والذي من أجله أحب الناس سعدا، ولولم يكون في النفوس حب مصر، لما أحب أحد منهم سعدا، ألا

وإن سعدا قد مات، فهذا لا يعني موت مصر، موت الحب الحقيقي الذي يجب أن يحيا في الحياة بصورة عملية، قبل أن يحيا في القلب والدموع.

نجيب محفوظ

لا تتعجب عندما أقول لك وأبتدئ به بما أبتدئه عن نجب محفوظ أن أقول لك: إنه علمني حب الجلوس على القهاوي، وأن أي حديث عن القهوة، أعده وثيق الصلة بعالم الأدب والثقافة، وأي أديب يتحدث عن ارتباطه بالقهوة، إنما هو يتحدث عن جزء أصيل من معالم إبداعه، والطرق المؤدية إلية، تعود (نجيب محفوظ) أن يجلس في مقهى علي بابا، وعلى منضدة تطل على ميدان التحرير، يصل إليها قبل الثامنة صباحًا، ويبقى لأكثر من ساعتين ويطلب فنجانًا واحدًا من القهوة على الريحة، وقد اعتاد أن يشرب كمية قليلة جدًا من هذا الفنجان، ثم يترك معظمة كما هو، ويقضي وقته الباقي في حالة من الصمت والتأمل حتى يحين موعد انصرافه.!

علمنا نجيب دور الأم التي يمكن لها أن توجه طفلها وتغرس فيه الشغف والحب نحو أشياء تُفيده في القادم من أيامه، بل تخلق فيه ما يوجهه لمواهب مجهولة في نفسه لا يعلم عنها شيئا، لقد كتب عدة روايات في التاريخ الفرعوني، وكانت أمه هي السبب المباشر في حبه وهوايته لهذه الحضارة القديمة، عن طريق ولعها بزيارة المتاحف والآثار وحجرة المومياات والأهرامات وأبو الهول ودار الأثار المصرية، وهو بصحبتها.

هل تعلم أن هذا الأديب الذي حصل على نوبل، وجذب الأنظار عنك، عانى مثل ما عانيت من الإهمال والاستنكار، لم يكن أحد يُدرك موهبته أو يلتفت إليه، حتى أنه كان مثلك تماماً، لو وضع كلماته بجوار ما كتب نابغة من السابقين، لما التفت إليه أحد أو أشاد به، حتى أتت اللحظة المناسبة، وعرفه الناس، وتلهفوا على أعماله وإنتاجه وصار أديباً يشار إليه بالبنان!.

نعم.. لقد كانوا يرفضون أعماله رواياته، ولا يرون أدبه حفياً أن يظهر للناس أو يطبع على الورق، وكان مصير إبداعه دومًا إلى الدرج –درج المكتب– الذي يتسع لكل ما أبدع قلمه

حينما ضاق به الآخرون، لكن نجيب لم ييأس ولم يصبه الإحباط، وواصل الكتابة والإبداع لإيمانه بأن اللحظة المناسبة لم تأت بعد.. وإيمانه أكثر بأنه مبدع.

يقول: "ما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها، فالنشر دائماً كان صعباً، خصوصاً في البداية، حتى أننا كنا نختار بعض المجلات المتخصصة مثل بعض المجلات القضائية التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلانات، فكانت ترحب بأعمالنا لتسويد صفحاتها، لكي تسند نفسها أمام الجهات التي تصدر عنها، لكي تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه، وإنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم، وقد كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم، والمتعة التي لا يعلوها متعة.

بدأت أكتب الرواية، أكتب وأعرض على الناشرين فيرفضون، وأضعها في الدرج فوق سابقتها، وأسلي نفسي بكتابة القصة القصيرة.

كنت أكتب الرواية وأدور على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، تقبع مع أختها في درج مكتبي، وأبدأ في رواية أخرى، وما أن أنتهي منها حتى أحملها بدورها وألف بها على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر وهي: (رادوبيس، كفاح طيبة، القاهرة الجديدة".

ظل (نجيب محفوظ) على هذا المنوال حتى التقى بسلامة موسى وعرض عليه رواياته، عساه أن يجد فيها ما يعجبه فيقوم بنشره.. لكن سلامة موسى لم تعُجبه رواياته، وفي الوقت نفسه أدرك موهبته التي تحتاج إلى تحفيز وتشجيع قبل أن تحتاج إلى صقل واستواء، فنصحه بأن يستمر في الكتابة حتى يصل للأسلوب المنشود الذي يرقى للنشر ويُعجب القراء..

ودار بينهما هذا الحوار: "سألني هل تكتب روايات؟ قلت: نعم.. تساءل:

هل نشرت؟ قلت: لا بالطبع، ولكني أكتب لنفسي، ولا أدري ما إذا كان ما أكتبه يستحق النشر أم لا؟ وطلب مني أن يطلع على شيء مما أكتبه، وفعلا أطلعته على بعض ما أكتبه، فكان يقول لي: أنت تملك موهبة روائية، ولكن هذه الكتابات لا تصلح للنشر، وقد كرر على مسامعي هذا الكلام مراراً.

كان (سلامة موسى) رجلاً وديعاً جداً وحيوياً، تطمئن إليه من اللحظة الأولى، ورغم أنك من تلاميذه، إلا أنه كان يشعرك أنك معه على قدم المساواة، كانت علاقتي بهذا الرجل مصدر سعادة وقوة لي، لم يجعلني أحس في لحظة أني أثقل عليه، قرأ لي أربع روايات، أو بمعنى أصح أربع تجارب في الرواية، وفي كل مرة كان يقول لي: لا تصلح للنشر ولكن استمر.. لابد أن تستمر، في انتظار رواية أخرى منك.. إلى أن جاء يومٌ آخر من أسعد أيام حياتي:

ذهبت له برواية (عبث الأقدار) وحين قرأها فاجأني: هذه تصلح للنشر، وحجزها لديه.

وكانت فرحة لا تقدر حينما قال لي: سوف أطبعها وأقدمها هدية من المجلة الجديدة، في إجازتها السنوية، وكانت لهذه المجلة إجازة شهران، تعطي للمشتركين فيها كتابا بدلا من المجلة!!

لحظتها لم أصدق ما أسمع، غير أني كنت أثق في كلام الرجل، مع هذا ظللت لا أصدق نفسي، حتى فوجئت به في أحد الأيام يقول لي بهدوئه المعتاد: اذهب للمطبعة وصحح روايتك.

جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعني، وكانت أول رواية تنشر لي مقابل ٥٠٠ عدد منها هي أجري عن الكتاب وكان العدد بخمسة قروش".

لم ييأس نجيب محفوظ مما واجهه من إعراض الناشرين، لأنه كان يعشق الأدب ويعيش له.. حتى وجد من يشجعه ويؤجج مواهبه.

علمني نجيب محفوظ، أن النجاح أساسه الحب، وإذا أحببت مواهبي سخرت لها كل شيء في حياتي حتى أبلغ فيها مراتب النجاح

حيث يقول: "دخلت الأدب وأنا في نيتي أن أعمل لآخر نفس، نجحت فسأستمر، لو فشلت فسأستمر، كنت عازما ألا يعوقني أي شيء، الفن حياتي، لم أكن أضع غاية ان لم أصل إليها فسيصيبني اليأس وسأتوقف، كنت قد قدرت أن أسير في طريقي و لا شيء يوقفني، عن اختياري الأدب، الذي كان اختيارا حتميا، ولم ألجأ إليه كشيء بديل عن أي شيء آخر

قد أنصرف عنه إذا ما تحقق البديل الأساسي، كان اختيار حياة، ولم يكن ثمة تردد، وكان لابد من الاستمرار والمثابرة أي ما كانت النتائج، كان الأدب بالنسبة لي نوعا من المسئولية كالزواج الذي أنجب الإنسان ابنا وأصبح من المستحيل عليه أن ينفصل عنه أو يتخلى عن أبنائه فيه. ثانيا: إنني أقدمت على العمل الأدبي وأمالي فيه ليست كبيرة، لذلك لم تكن الخيبة حادة بالنسبة لي... كانت علاقتي بالفن علاقة حياة وحب أشبه بالتصوف، بحيث أنك تحبها وترضى عنها سواء أكانت مجزية أم دونما جزاء على الإطلاق.

وإذا أردت أن تضيف لهذين السببين أني كنت تلميذا مجتهدا، وأنك تستطيع أن تنسبني للعمال الذين بنوا الأهرام وليس المهندسين الذين اجتنوا الثمار، أحيانا يقولون أني " مهندس الرواية المصرية "، وحبي للهندسة والعلوم الرياضية، أكسبني ذهنا مرتبا ومنطقيا، وساعدني على تنظيم حياتي، وهذا التنظيم كان ضرورة لأني كنت موظفا ملتزما بمواعيدي، وأريد أن أتفرغ لفني الذي أحبه فحددت له وقتا ثابتا لا أتنازل عنه، ثم أني أحب الناس ومرتبط بأصدقائي، فخصصت لهم وقتا محددا. و إذا لم أكن منظما بهذه الصورة لما أنجزت أي شيء في حياتي.

علمنا نجيب أن العلم والدراسة وما يسمى بالكسب، يصقل الموهبة، وينمي الرغبة، فهذا الهوى وحده للحضارة الفرعونية، لم يكن كفيلا أن يدفعه إلى الكتابة عنها، وإنما لابد من دراسة عميقة قوية، حتى تكتمل ملامحها في مخايله، حيث أخذ يحضر محاضرات قسم الآثار في الجامعة المصرية بعد الظهر، ودرس تاريخ مصر الفرعونية بأكمله دراسة وافية توشك أن تكون دراسة متخصص، قرأ نجيب التاريخ المصري القديم بنهم شديد، وتعرف على كل ما يزخر به من حياة اجتماعية وعلوم وفنون وآداب، قرأ فيه بتوسع غير عادي، مما ساعده على استخراج عشرات الموضوعات لروايات عديدة، وبالفعل بدأ يكتب ثلاث روايات كل مادتها من هذا العصر رادوبيس وكفاح طيبة وعبث الأقدار.

علمنا نجيب أن أعظم حرمان في حياة الكاتب والقارئ، هو أن يمنى بعائق يفقده ويحرمه متعة القراءة والكتابة، لأنها بالنسبة له تعني الحياة والتنفس والروح، حيث قال يوما: "إن أكبر هزيمة في حياتي هي حرماني من متعة القراءة بعد ضعف نظري"

علمني نجيب معنى التواضع، وإنصاف الناس ومنحهم مكانتهم التي تليق بهم، خاصة إذا كانوا ذو تأثير في حياته، فلم تنعه الغيرة يوما أن يعترف ويقول: " لولا الحكيم لما كنت أديبا"

علمني نجيب أن أزكي الجانب الروحي في نفسي وقراءاتي، فقد كان يفعل ذلك حينما يحل شهر رمضان، ويقضي بعض الوقت في قراءة الكتب الدينية مع القرآن الكريم والسير والتراجم الخاصة بعظماء الإسلام، وتصحبها قراءات في التصوف والفلسفة، والقراءة عن ابن عربي والسهروردي والنفري وغيرهم، كان يحب الشعر الصوفي ويحفظ منه عشرات الأبيات، كان نجيب يستمتع بالقراءة الدينية، ولم يترك ديوانا دينيا إلا وقرأه، سواء كان عربيا أو مترجما، كما كان يحرص على القراءة وقت الصيام، تحديدا بين العصر والمغرب، ووجد في كل هذا تجربة فريدة أثرت مباهجه الروحية.

علمني نجيب أن النزعة الصوفية في ثقافته وهذا ما وجده من الشعر الصوفي الذي ظهر في كثير من كتاباته، إنه يعتبر التصوف واحة جميلة يستريح فيها من الحر، حر الحياة كما يقول، ورغم حبه للمذاق الصوفي، إلا أنه لا يتفق معهم في كثير من الأهواء والأفكار التي يبديها كثير من المتصوفة، وأولها انسحابهم من الحياة، لقد أيقن أن التصوف انسحاب من الحياة وهو يحب الحياة، بل يدعو إلى الانغماس فيها، كان يحب القراءة فيه، لكنه لا يعجب بمنهجية أصحابه.

علمنا نجيب أن من أساسيات الكتابة الناجحة هي حب الأمكنة والأشياء والفكرة والهدف، التي تدفع القلم ليصور ويبدع ويصول ويجول، وأن الإبداع مرتبط بالمكان، وقد كانت الأحياء التي سكن فيها هي مسرح تجاربه الكتابية، فهو لا يشعر أنه يحسن الكتابة، إلا إذا كتب عن زقاقه الذي كان يعيش فيه، لقد شغلت وجدانه وأججت مشاعره، فتجلى تأثيرها الواضح في العديد من أعماله الروائية، كزقاق المدق، وخان الخليلي والثلاثية.

علمنا نجيب معنى الوفاء للزوجة التي تعين الأديب أن ينهض برسالته، حين توفر له المناخ الملائم ليبدع وينتج أثمر الآداب، ليكون لها دورها المحوري في خدمة الأدب، ثم يقوم هو بعد ذلك ليوفيها قدرها، ويشهد لها بما قدمته من عون ومساعدة.

فتاريخ الثقافة والأدب لن ينسى أبدًا (عطية الله إبراهيم) زوج نجيب محفوظ، تلك المرأة التي أدركت بقوة موهبة زوجها ونبوغه، فعملت على خدمة هذه الموهبة، وتوفير الأجواء التي تنمو فيها وتتجذر وتنتج، حتى أتت أكلها وأثمرت بقوة، كانت تثق فيه كثيرًا، وتدرك أنه سينال ما ناله في يوم من الأيام، أما هو فقال عنها: إنه إذا كان لأحد فضل عليّ بعد الله تعالى فيما وصلت إليه، فهي زوجتي التي كانت بالفعل عطية الله إلي.. لقد فهمت طبيعة حياتي وتقبلتها، وحرصت على توفير الأجواء التي تمكنني من الكتابة، وحاولت بكل طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني أو يشغل فكري.. فكانت حقاً كما قيل وراء كل عظيم امرأة.

تعلمت من نجيب محفوظ أن حب القراءة على موعد مع القدر ، وقد يتولد فيك هذا الحب والتعلق به، دون قصد أو تعمد، فقد بدأت رحلة الكتاب والقراءة عند نجيب محفوظ مبكرا جدا في صغره، حينما أهداه صديقًا له رواية بوليسية وهو في السنة الثالثة الابتدائية، وكانت أول شيء يقرؤه من غير الكتب المقررة دراسيا، ومن يومها استمر في القراءة وتفتحت له أفاقها، وتوالت بعدها القراءة الحرة، وتعلق بالثقافة، وتنبه لأسماء الكتب والكتاب، مثل المنفلوطي، الذي كان يلتهم كل كتاباته ثم تغول في قراءته لدرجة أنه صار يقرأ كل ما يصدر، ثم قاده كل ذلك إلى شعور بالرغبة في الكتابة.

تعلمت من نجيب أن الوعي بقضايا الوطن يمكن أن نشب عليه ونحن صغار فيملأ حبه أركان نفوسنا وتتشبع به أرواحنا، لقد قامت ثورة ١٩١٩م وهو ابن سبع سنوات، وفرض هذا الحدث على نجيب اهتمامه بالسياسة ووعيه بها منذ سكن مبكر، فأخذ يتابع الأخبار والأنباء بعد ذلك، كما أن حبه لوطنه تجسد في حبه العارم لشخصية سعد زغلول كزعيم وطني قامت من أجله هذه الثورة، كان يقول بأن حبه لسعد علمه القراءة مبكرا، فقد كان

يبحث عن الجرائد ويفتش فيها عن ردود سعد وتعليقاته، وكانت هذه هي بداية قراءاته السياسية وهو في المرحلة الثانوية.

عملني نجيب معنى الوحدة الوطنية التي تجسد نسيج هذا الوطن من مسيحيين وأقباط، وأن هذا الوطن لا يسلم إلا بوحدة القطبين معا، فهو ينتمي لجيل نشأ على الوحدة الوطنية، ويقول بأنهم لم يكونوا يعرفون معنى التعاير الطائفي في المجتمع بين فئة وأخرى بانحراف أتباعها، لأن الانحراف يمسنا جميعا كمصريين، سواء مسلمين أو أقباط، يقول نجيب: لم يعلمني أحد الوحدة الوطنية في الصغر، لأني نشأت فوجدت هذه الوحدة حقيقة من حقائق الحياة في مصر، إنني شخصيا أعتبر مثالا حيا على هذه الوحدة، فقد سميت على اسم طبيب التوليد القبطي الشهير نجيب باشا محفوظ، فقد كانت ولادتي متعثرة، وتم استدعاء هذا الطبيب الشاب وولدتني أمي بسلام، فقرر والدي أن يطلق علي اسم الطبيب القبطي، وكنا كذلك نعرف بالمصادفة وحدها إن كان أحد أصدقائنا مسلما أو مسيحيا، فلم يكن هذا موضوع نتوقف عنده بالبحث والسؤال، وأذكر أن أحد أصدقائي توفي والده، وأردت أن أقدم له واجب العزاء، فعلمت أنه سيكون في الكنيسة وليس في الجامع، وعندئذ أدركت أنه مسيحي، وأما الجنازة فكانت واحدة، وسرادق العزاء كان واحدا.

تعلمت من نجيب أن البكاء ليس عيبا ويمكن للمرء أن يبكي لفقد الأحبة ولشعوره بالناس، ولتأثر مشاعره بحب الوطن ورموزه، لقد بكي نجيب في حياته أربع مرات وكل مرة فيها كانت تبعث على معنى معين يجب أن نلتفت إليه، بكى يوم أن مات سعد زغلول، الذي كان يتمنى رؤيته، وقد اشترك في مظاهرة وكان عمره ١٥ سنة ولم يستطع رؤيته من الحشود العظيمة التي أحاطت به، بكى نجيب يوم موت أبيه، وبكى يوم أن علم أن المنفلوطي رجل ميت، فقد أحبه وارتبط به من كتاباته وأسلوبه، أما المرة الرابعة فهي التي بكى فيها من تمثيل السيدة روز اليوسف لمسرحية غادة الكاميليا التي أبدعت فهيا، وكانت وقتها قد اعتزلت التمثيل، لكنها أبت أن تعاود حتى تتبرع بإيرادها لقرية احترقت عن آخرها عام ١٩٣٢م.

علمنا نجيب روعة الأم حينما تشارك ابنها في رغباته، وتدفعه نحو طموحه، غير غاصبة له أو مرغمة إياه على هوى يخالفه، كانت تترك له حرية الاختيار، كما فعلت في اختياره للدراسة، التي خالف فيها رغبة الأسرة حينما أرادوه أن يكون طبيبا أو مهندسا، ولكنه دخل الآداب ولم يجد من يقف معه سوى أمه، كانت له كل شيء وكانت تحيطه بحنانها ورعايتها، حتى أنه مدين لها بتكوينه الفني والمعرفي من خلال حكاياتها وعشقها للآثار وصحبته لها في زيارتها للمتاحف والأهرامات، وكان اعتماده عليها كبيرا حتى في بلوغه واستوائه، فهو يقول: " الإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها في أشياء كثيرة، قد لا تكون بالضرورة أشياء مادية، ولكنه يعتمد عليها عاطفيا، وبرحيلها يفقد سندا عظيما في الحياة، ويدرك أنه صار الآن وحيدا، وقد يكون له ذرية

وأصدقاء ، ولكن مكان الأم يظل شاغرا إلى الأبد، فرحيلها قد أثر في كثيرا رغم بلوغي الخمسين."

علمنا نجيب محفوظ أن المرء الموهوب لو حظي في حياته بمن يشجعه ويوجهه، فإنه يثمر فيه ثمرة عظيمة قد تصل به إلى الذرى والعالمية، نعم لقد قدر لنجيب والذي لم يكن في بيته غير الكتب الدينية، أن يتصل في المرحلة الثانوية بمدرس اللغة العربية، الذي أثر فيه ووجهه وزملاءه لقراءة الأدب والتراث، وكان يكثر الاستشهاد بالشعر والحكايات، وكان يدلهم على مصادرها من أمهات الكتب، والتراث القديم، ومن هنا تميز نجيب وبدأ يقرأ في كتب لا يقرأ فيها أبناء جيله، أو يعرفون عنها شيئا، مثل الكامل والأمالي، وكذلك وجههم نحو الأدب المعاصر ورجاله.

علمنا نجيب أن الثقافة رحلة ومسيرة لابد من الجهد والكفاح في مسيرتها حتى يبلغ المثقف فيها غايته، ويحصل على درجته، لقد كان يشعر بأن ضآلة المعرفة هم يؤرقه، وهو ما دفعه لينطلق بشغف كبير نحو التوغل القرائي، فكان وهو في المرحلة الثانوية يضع قائمة بالكتب التي يقرأها، وكان كل كتاب جيد يفتح عينه ووعيه على كتب أخرى، وكان يشعر أن الجهل دوما يطارده، وأنه يتعلق بأذيال معرفة ضئيلة بسيطة، كان يحدث هذا رغم أنه لم يمض يوما

في حياته إلا ويقرأ فيه ويزداد معرفة، وظل هذا حاله حتى قرأ للجميع وعن الجميع، في الأدب العربي والغربي، قرأ نجيب من الأدب العربي العقد الفريد والبيان والتبيين والأغاني وغيرها من المؤلفات الموسوعية، وكان يستعير بعض عباراتها وهو يكتب الإنشاء في المدرسة، مما كان يثير عجب المعلمين.. وكان يقرأ في الشعر والملاحم الشعبية، ثم انتقل إلى الأدب الحديث وواءم بينه وبين نمطه السلفي في القراءة.

تعلمت من نجيب محفوظ أن أوائم بين مشاعري وعواطفي وبين ما يجب أن أتعلم منه، فهو لم يجهز بقراءاته في الميدان الأدبي على التراث العربي وحده، وإنما حاول التعرف على الآداب الأجنبية، وخاصة في الأدب الإنجليزي، وكان ذلك في عز كراهية المصريين للمحتل الغاصب، وكان البعض وقتها يظن أنه يجب مقاطعة الأدب الإنجليزي، لأنه ن الممكن أن يستميل عواطفك تجاه الإنجليز، ولكن نجيب علمنا أن الأدب الإنجليزي يمكن أن تجعلك تثور أكثر على المحتلين، لأنه أدب إنساني راقي لا يقبل الضيم والظلم، كما يدعو للحرية والمساواة، بل يقرر نجيب أن الأدب الإنجليزي كان من أسباب تمردنا على السياسة البريطانية، تماما مثل خطب سعد زغلول، وكنت تجد العقاد مثلا قائد الحملة في الهجوم على الإنجليز، ومدرسته في النقد الأدبي إنجليزية الأصل، وكان هو المدافع الأكبر عن الأدب الأنجلو ساكسوني، ودخل معركة كبيرة مع طه حسين والأدب اللاتيني.

تعلمت من نجيب محفوظ أن لا يمنعني كوني أديبا وكاتبا ومحبا للأدب والرواية، أن أقرأ كتب العلم، وأهن أهتم بالمعرفة بصنوفها، فقد كان نجيب يلتهم كتب العلم في ساعات، أما الرواية التي هي ميدانه وتخصصه الأول، فلم يكن يقرأ منها إلا فصل واحد، نجيب يعترف بأن العلم يشبع في نفسه أشياء كثيرة غير عادية، فالكتاب العلمي يعطيه الحقائق المقطرة، فالرواية قد تعطي البصيرة والإلهام، وأي بصيرة وإلهام أكثر من رحلة القمر؟ العلم كما يرى نجيب أعظم ما وصل إليه الإنسان، وأن أي هجوم على العلم يؤرقه ويشقيه، خصوصا من بعض رسامي الكاريكاتير الذين هاجموا العلم لأنه يشقي الأحياء، لكننا في الحقيقة نجد

أنفسنا القتلة وليس العلم، إنسان العصر الحجري كان يقتل بالطوبة، فالإنسان هو القاتل دائما وليس العلم.

تعلمت من نجيب محفوظ اعتزازه بدينه وعقيدته أمام من يمسونها ويحاولون إخراجه منها، تعلمت منه اعترافه بما للقرآن الكريم عليه من فضل كأديب، وكذلك قبول النقد في كل شيء إلا إذا تعلق الأمر بالطعن في دينه وعقيدته، عندئذ كان يرد ويجادل ويسوق الأدلة التي تؤكد على عمق إيمانه، ويقينه بوجود إله خالق غفور رحيم، وقد قال في بعض الحوارات: " لم أقرأ في حياتي كتاباً واحداً أكثر من مرة باستثناء كتاب واحد هو القرآن الكريم، قرأته منذ الصغر وتعلقت به، وداومت على قراءته بشكل يومي ولو أجزاء قليلة، قرأت كذلك كتب التفاسير، وإن كان أكثرها راحة وسهولة بالنسبة لي هو منتخب التفاسير الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية." ويقول:" وأما علاقتي بالقرآن والتي بدأت في وقت مبكر من حياتي، فإنها توطدت أكثر، بعد تعلقي بأصوات كبار القارئين في ذلك العصر، خاصة الشيخ علي محمود الذي كان يمتلك صوتاً موازياً للوطن، فإذا كان مشهد الوطن يحرك المشاعر، فكذلك كان صوت الشيخ علي في ترتيله للقرآن." ويقول:" وقد كان للقرآن وأسلوبه وموسيقاه العذبة أثر كبير في أسلوبي في الكتابة، وظهر ذلك بشكل واضح في «أحاديث الصباح والمساء»، والتي قال عنها الناقد محمد حسن عبد الله: إن تلك القصص تسير على نفس المنهج الذي سارت عليه قصص القرآن، كما ظهر فيها تأثري البالغ بأسلوب القصص القرآني." ويقول:" أما أكثر سور القرآن التي سحرتني بموسيقاها وأسلوبها، فهي سورة «الرحمن». وقد جاء صحفي أمريكي إلى القاهرة ليجري معي حديثاً، وسألني عن علاقتي بالقرآن وتأثيره علي وأسئلة أخرى، ثم سافر عائداً إلى بلاده. وبعد بضعة أيام فوجئت برسالة بريدية منه، حيث أخبرني أنه نسي سؤالاً هاماً ويريد مني الإجابة عنه، وكان السؤال هو: ما أحب سور القرآن إلى نفسك؟ وأرسلت له الإجابة: إنها سورة الرحمن."

إحسان عبد القدوس

في حياتنا الأدبية والثقافية يُعرف عن الأستاذ (إحسان عبد القدوس) أنه كاتب الجنس وأديب الفراش في السينما المصرية، ولعل هذا ثابت وله أدلته، لكنه ليس كل ما يرسم لك حقيقة إحسان عبد القدوس، ويعطيك مالا تعلمه من حياة الرجل، إلا إذا بحثت عنه في حياته، وقد تعجب حينما تعرف أن في حياة إحسان وتاريخه، صفحات عظيمة وسنوات طويلة، من البطولة والنضال والوطنية والكفاح والأزمات والانتصارات، بل والمعاني الإنسانية النبيلة التي نستلهمها من ذكرياته، لتقدم لنا صورة الأديب الإنسان، الذي نتعلم منه الكثير والكثير، وأن يكون منه النظر اللائق به، والتقييم الأمثل لشخصه.!

علمني إحسان عبد القدوس أن أحب العمل إلى حد الجنون، خاصة إذا كان هذا العمل هو الكتابة التي تسحر الكاتب والمثقف.. كان إحسان يعطي للكتابة غالب وقته وحياته وساعات طويلة من أيامه، كان يتخذ من روز اليوسف بيتا له يجلس فيه بالساعات، ويحضر كل صباح في الحادية عشرة حتى الثالثة، وينام القيلولة، ثم يعود في الثامنة ليبقى حتى الثانية صباحا، ولا يدخل عليه أحد من تلاميذه والعاملين معه إلا ويجده غارقا في الكتابة، أو بين اليقظة والإغماء كما وصف من شاهدوه.

لم يكن يحاضر من حوله من الكتاب والصحفيين عن أهمية العمل، وإنما كانت يعطيهم بنفسه القدوة في ذلك فيسبق من حوله إلى الكتابة الوافرة.

تعلمت من إحسان معنى الإتقان وأن أهتم بمقالاتي وأراجعها، وأدقق ما أكتبه، وأضع صغار الرسوم والتشكيلات والإشارات حتى ولو كانت نقطة أو همزة، فهو مما تدرب عليه واكتسبه من حب الكتاب وعشق حروفها، ولعله الأمر الذي تعلمه من أمير الصحافة محمد التابعي الذي كان يعمل معه في مجلة آخر ساعة، فقد كان لا يزال محررا صغيرا، وكان التابعي يدق الجرس ليطلب إحسان من آخر الصالة، فيهرع إليه وقلبه يدق من القلق، ويخشى أن يكون ما قدمه له من الأعمال ركيكا، فإذا به يجد التابعي يقول له: يا إحسان لقد نسيت في مقالك أن تضع نقطة أو نقطتين فوق التاء ونقطتين تحت الياء.

ولعل إحسان كان الكاتب الوحيد كما قيل: الذي يعنى بوضع النقط على الحروف، وكان كذلك من أكثر الكتاب عناية بأناقة الخط وبما يكتب، وهذا كله من تمام عشقه وحبه للكتابة وإيفائه لمعالمها ودواعيها وطقوسها.

تعلمت من إحسان عبد القدوس الاعتزاز بالنفس، حينما كان يرفض أن يُهدي كتبه إلى أحد، لأنه لا يرضى أن تهمل هديته التي تعبر عن شخصه ونفسه، وتُترك بلا قراءه لأنه كان نفس التصرف الذي يُبديه مع كتب الأخرين التي تُهدى إليه، ومن ثم لم يرغب أن يُعامل بما يُعامِل به غيره.!

تعلمت من إحسان أن أتغلب على كثير من بعض العقد التي تلاحقني في حياتي، وليس لي ذنب أو رغبة في وجودها حينما التصقت بي، لكنني لا يجب أ أستسلم لها، بل أقاومها بالجد والتعب والكفاح، نعم كان هذه العقدة في حياة إحسان هي عقدة (ابن الست)، التي كانت تلاحقه في أي مكان، حاول إحسان أن يتمرد على هذه اللقب، لكنه في ذات الوقت لم يرفضه لأنه كان يعلم خبث من يرددونه حينما أرادوا أن ينسبوا كل فضل يحققه، وإنجاز يحصده وكل نصر يناله، إلى أمه وإلى هذا اللقب، وكأنه مجرد كائن لبلابي النزعة يحسن التسلق على اسم أمه وشهرتها، وبذلك يكون بلا فضل ولا تميز ولا قيمة.

ورغم وجود هذه العقدة النافذة في حياته، إلا أنها لم تسمح له أن يكره أمه أو يخرج من عباءتها أو يتنكر لها، بل كان يحبها حبا عظيمًا وهو الذي قال فيها: " نعم أنا ابنها وتلميذها أخذت منها البدايات الجيدة، ولكنني قدمت إضافات لا يستطيع أحد إنكارها..

تعلمت من إحسان معنى الوفاء للزوجة التي تشاركني الحياة وتقف بجواري وتساعدني وتشد من أذري في تحقيق حلمي ودعم مواهبي وقدراتي، ومواجهة أعباء الحياة.

لقد كتب عنها قائلا عن زوجته: " هي حبي الأول والأخير، وقد لا يصدق الكثيرون هذا ولكنها الحقيقة، فمنذ أن عرفتها في مطلع عام ١٩٤٢، وكنت حينذاك طالبا بالحقوق، وحتى الآن لم تستطع امرأة أخرى أن تزحزح مكانها في قلبي!! فلولا ثقتها بي وأنا في مستهل حياتي،

لما وجدت الشجاعة على الاستقلال بنفسي، وهذا الذي جعل أمي تطمئن بقدرتي على المضي في الحياة.

لقد أعطتني الصورة المثالية للزوجة التي تفهم دورها في حياة زوجها، والتي تستطيع أن تشكل هذا الدور تبعا للظروف التي يمر بها زوجها في مراحل حياته المختلفة، فقد عشنا ظروفًا عصيبة، وأيامًا صعبة في بدء حياتي، وكان دخلي لا يزيد عن عشرة جنيهات، وكانت رسالتها آنذاك وشغلها الشاغل هو البحث عن وسائل لتوفير حياة معقولة بهذا المبلغ البسيط، وعندما تغيرت حياتي وأصبحت المشكلة الاقتصادية ليست مشكلة في حياتي، سارت زوجتي بذكاء لتغيير دورها في حياتي، من تدبير الوسائل التي تسهل لدخلي البسيط أن يكفينا إلى آخر الشهر، إلى حمايتي ككاتب، عليه أن يعطي الكثير من وقته لقلمه، من مشاغل الحياة اليومية التي تشغل بها كثير من الزوجات بال الزوج الذي لم يتفرغ لما هو أهم من التفكير في إصلاح الثلاجة أو شراء لوازم البيت..

وبالتدريج تحولت زوجتي برسالتها في حياتي إلى وضع فريد، أستطيع أن أشبهه بدور رئيس مجلس الإدارة في حياة الشركة أو المؤسسة، الأمر الذي يجعلني الآن قادرا على أن أقول ببساطة أن زوجتي هي رئيسة مجلس إدارة حياتي، بل لقد نجحت بذكاء شديد في أن تأخذ كل اختصاصات مجلس الإدارة مجتمعا رئيسًا وأعضاء! واذا كان مؤرخو المسرح الأوربي يعتبرون ستر ندبرج مثلا للضياع والشنات وقمة في التمزق النفسي والاجتماعي، بان حياتي قبل أن أتزوج ، لا تقل فظاعة عن كل ما لاقاه هذا الأديب الضائع لولا أنى وفقت و بضربة حظ إلى الحب الحقيقي الذي أعاد إلى حياتي توازنها وهو ما اعتقد أن سترندبرج عاش يبحث عنه دون أن يلتقى به »

جمع إحسان فيما قاله نبل المشاعر وصدق الوفاء، مزج في حديثه وتعبيره عن امتنانه لهذه الزوجة، بين الحب الجارف والوفاء النبيل، فبعض الكتاب يقدر الوفاء وحده مع حسن العشرة، لكن امتنان إحسان كان مزجًا بين هذا الحب المغلف بالوفاء.

بل علمني أن الأديب لا ينجح كثيرا إلا إذا كانت وراءه امرأة عظيمه تدعمه وتساعده، حتى يبلغ مبلغه، وينال ما يريد من الإبداع.

تعلمت من إحسان أن يعرف المرء صدق مشاعره وتمسكه بحبه للمرأة التي يرى فيها شريكة حياته، يتمسك بها مهما كانت العقبات والعوائق، لقد وقع في قصة حب منذ أن أبصر ملامح هذه الفتاة التي شغلت لبه وكيانه، وصمم على الزواج منها سرا حتى يتغلب على رفض أهلها وأي موانع يمكن أن تحرمه منها.

تعلمت من إحسان أن أحدد هدفي وأمشي وراء ما أحبه من الهوايات، وأن ألبي رغبة موهبتي التي تلح بين ضلوعي، وأن نجاحي الحقيقي في هذه الهواية التي أحبها لا فيما فرض علي من وظائف وأعمال، لقد كان إحسان واحدًا من كثير من الناس التي يمكن أن تضعه الأقدار في طريق وعمل ووظيفة لا يجيدها ولا يحبها، ولا يهواها، وأن الطريق إليها لم يكن إلا مجرد الحصول على شهادة علمية، لقد درس في الحقوق وعمل محاميًا، ولكنه لم يكن ناجحا في المحاماة، لقد التحق بالعمل كمحام تحت التمرين بمكتب محام شهير، لكنه للأسف كان لطبيعته أن تمنعه من التفوق في هذه المهنة، فهو خجول لا يجيد الكلام والمناقشة، والمحاماة هي مهنة الحوار والصراع والمناورة والمواجهة، لا ينجح فيها إلا رجل يتصف بهذه الصفات ويملك البراعة فيها، وها هو يقول: "كنت محاميا فاشلا لا أجيد المناقشة والحوار، وكنت أداري فشلي في المحكمة إما بالصراخ والمشاجرة مع القضاة، وإما بالمزاح والنكت وهو أمر أفقدني تعاطف القضاة، بحيث ودعت أحلامي في أن أكون محاميا لامعا"

تعلمت من إحسان أن أبحث في قدراتي ومواهبي وقدراتي إذا أعيتني الحيل في الحياة، لأتغلب على ضيق العيش وصعوبة الارتزاق، تعلمت منه أن أفتش في جنبات مؤهلاتي عسى أن يكون فيها طريقا يأتي منه الفرج، لقد فشل كما ذكرنا في المحاماة، وجالت بخاطرة فكرة أن يقلد بعض أصحابه ليكون تاجر وسمسار أرز يتكسب المئات، ولكنه فشل كذلك، ولم ينجح في هذا المحاولة، نظر إحسان وقتها في نفسه وسألها: لماذا لا يجرب الكتابة للسينما؟

وهو بحكم نشأته ليس بعيدا عن هذا الوسط الفني، فهو ابن الممثلة المشهورة فاطمة اليوسف، وبالفعل كتب باكورة أعماله سيناريو لفلمين، والتقى بعزيزة أميرة صدفة وعرفت سبب حضوره، وجلست تلتهم وتقرأ مسودة الفلمين فأخذته عنوة إلى مكتبها، ولم تتوقف عن القراءة حتى انتهت ودون أن تعطيه أي فرصة للكلام، أخرجت دفتر شيكاتها، وحررت له شيكا بمائة وستين جنيها.. كان هذا المبلغ المالي الكبير، أول قدر يقبضه في حياته، وفرح به فرحة كبيرة هو وزوجته، ويبدو أن إحسان قدر اكتشف نفسه من جديد وعرف طريقه.

علمني إحسان أنه رغم تنوره وتفتحه ودعوته للتحرر والحرية، وانطلاقة المرأة، والدعوة لاستقلاليتها وإيجاد ذاتيتها وكيانها، إلا أنه رغم هذا يحتفظ برجولته، تلك الرجولة التي تعني المروءة والشهامة والقيام بالمسؤولية، التي لا تؤهله أبدا أن يعتمد على المرأة ويتقبل أن تعوله وتقوم بدوره في تحمل أعباء الحياة، لقد عملنا أنه رجل شرقي صميم، وتبدى هذا حينما كان وزوجته يعانيان شظف العيش، وشدة الفقر والاحتياج، وكان لها في ذات الوقت إرثا عن أسرتها يمكن أن يكون كافيا ليوفر لهما حياة كريمة، تبعث على الاستقرار المادي وانتشالهما من هذا الفقر المتقع، ولكن إحسان الرجل، يرفض رفضا مطلقا أن تعوله زوجته أو تصرف عليه، ولو بقدر بسيط يسير من هذا الميراث للوفاء باحتياجاتهما المعيشية، وقد حاولت مرارًا أن تقنعه بضرورة مشاركة المرأة ماديا للرجل في الحياة، ولكنها أبدا لم تفلح.

لقد كان رجلا شهما نبيلا تجري في دمائه أصول الشرق وتقاليده.

والرجولة في حياة إحسان لها حديث طويل، فهو ابن تلك المرأة التي جعلت منه رجلا، وأهلته ليكون رجلًا.

لقد علمني إحسان حينما أمسك بالقلم في بداياته الأولى، أنه صاحب قضية وأن قلمه لابد أن يكون قلمًا حرًا نزيهًا جريئًا، وليس قلماً مأجورًا أو عميلاً خائنًا، ومن ثم كانت أول طلقات مداده، صرخة في وجه المحتل الغاشم، وتنكيلاً بصلفه وغروره.

علمني إحسان أن الأم تستطيع فعل الكثير لو أرادات أن تخرج بطلا وتنجب عظيما حرًا شهمًا يهب قضيته لوطنه ومستقبل بلاده، وأن يكون مثالا للرجل النبيل الذي لا يتخلى عن رجولته في مواقفه وآرائه.

ففي عام ١٩٣٥ اشترك إحسان في مظاهرات الطلبة، حينما كان في مدرسة فؤاد الأول الثانوية، يهتف مع من يهتفون بائتلاف الزعماء وعودة الدستور، وكانت يومها جالسة بمكتبها بالجريدة، حينما دخل عليها وقد احتقن وجهه وعلى خده الأيمن آثار كرباج ذي ثلاث شعب، قد أزرفت خطوطه واحتبس خلفها الدم، وسألته ما هذا فقال لها: عسكري إنجليزي، فقابلته بهدوء ولم تعترض على ذلك أو تهتز أمامه، بل حفزته وشجعته ليشترك في نشاط الطلبة السياسي والوطني.

تعلمنا من إحسان، أن الإنسان تعترضه في مسيرة حياته كثيرًا من محطات اليأس والإحباط، لقد صب خصوم (إحسان) عليه إهانات بالغة، كاد معها أن يفقد موهبته، بسبب هجومه على حزب الوفد، ونقده لسياساته، و كانت نتيجة هذا الهجوم أن تعرض لحملة قاسية غير شريفة، شنتها عليه صحيفة (صوت الأمة) الوفدية، وركزت هجومها ضده على أنه ابن ممثلة، لا يفهم في السياسة، و يجب عليه أن يبتعد عنها! وهنا يغضب إحسان غضبًا شديدًا، ويقرر أن يعتزل الصحافة! وتُطل الأم المناضلة وتقدم له مجموعة من مجلة (الكشكول)، وبها شتائم وسباب شخصي لها، فلما قرأ إحسان، اعتلته دهشة كبيرة، لأن هذا الهجاء كان شديدًا، فابتسمت له وقالت: "من الذي بقي يا ولدي، الكشكول أم روز اليوسف؟! يا بني إذا شتمك خصمك في الرأي، فاستبشر خيرًا، فهذا دليل عجزه، وإذا كنت قويًا فدع العجزة وامضي في طريقك!

وفي سن الـ٢٥ من عمره، على موعد مع عالم البطولة، ففي مقاله الشهير (هذا الرجل يجب أن يذهب) والذي هاجم فيه اللورد (كيلرن) سفير بريطانيا على خلفية حادث ٤ فبراير، وبعد نزول العدد للسوق، دخل أفراد البوليس السياسي، واقتادوه إلى سجن الأجانب،

وتذهب أمه معه، تريد أن تنسب المقال لها، لتدخل السجن بدلًا منه، و لكنه أصر حتى أودعته النيابة في السجن، أصر لأنه رجل، ولابد أن يتحمل مسؤوليته كرجل.

يعلمنا إحسان أعظم درس في حياة الإنسان حينما يتعرض فيه لهذ الامتحان في الفصل بين الجد والهزل، بين الكلام والفعل، بين الوطنية الصادقة والدعاوى الزائفة.

كان إحسان في هذا الوقت كاتبا وطنيا كبيرا ، يشعل النار على الإنجليزي المحتلين والممالئين لهم من الحكومات، وشاءت الأقدار أن يتعرض لاختبار عنيف، يبرهن به لنفسه قبل غيره على صدق وطنيته.

تحكي الدكتورة أميرة أبو الفتوح رواية عن إحسان عبد القدوس في كتابها القيم إحسان عبد القدوس يتذكر:

" ذات يوم اتصل بي تليفونيا في ساعة متأخرة من الليل سعد كامل، وكان إذ ذاك من شباب الحزب الوطني المتحمس.. وكان حديثه سريعا، ولكنه واضح وحاسم، ورغم أن عباراته تفجرت في ذهني كالقنبلة، فلم أضيع وقتا وأسرعت للقائه.

فقد هرب حسين توفيق، قاتل أمين عثمان، واستدعى سعد كامل الأستاذ إحسان للتشاور معه في كيفية اتخاذ التدابير اللازمة لإخفاء القاتل الهارب، ذلك القاتل الذي تعلن إذاعة القاهرة كل نصف ساعة، عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه، لمن يرشد عنه مع التهديد باعتبار من يأويه شريكا له في جريمة عقوبتها الإعدام.

ويتذكر الأستاذ إحسان هذا الحادث النادر في حياته فيقول : "كانت شوارع القاهرة قد بدأت تخلو – مع الليل ـ من المارة، وكنت أقود سيارتي بسرعة جنونية، ربما لأخفف بسرعتها من حدة الانفعال الذي كان يثور في داخل وأعطى نفسى فرصة بعدها للتفكير الهادي في المغامرة المجنونة التي أنا مقدم عليها » ..

لقد وجد الثائر إحسان عبد القدوس نفسه في موقف صعب، وأمام اختيار أصعب، فإما أن يتحمل مسئولية إخفاء قاتل هارب تسعى السلطة الحاكمة بكل غضبها وراءه، لكي يثبت عمليا لكل الثوريين الشرفاء أنه واحد منهم، وأنه قادر ـ عند اللزوم ـ على مواجهة السلطة

وتحديها بشكل سافر، وإما أن يتراجع خوفا من العواقب المؤلمة التي تنتظره اذا افتضح أمره فيكسب بذلك أمنه الشخصي، ويفقد بعد ذلك وضعه في صفوف الثوار فيتحول لمجرد تاجر، يضارب ـ بالكلام المنمق والشعارات المزيفة ـ في سوق الثورة.. كان اختيارًا صعبًا، وامتحانًا رهيبًا.

يقول: لم تستغرق المناقشة مع سعد كامل أكثر من دقائق قليلة، تم بعدها الاتفاق على كل شيء، رغم أنه كان يعارضني منذ البداية، لأن خطتي بدت له ولأول وهلة شيئا جنونيا أو انتحارا مؤكدا، ولكنه اضطر للخضوع لرأيي.

وأنا واثق أن البكباشي الجزار مساعد البوليس السياسي ورئيسه سيشدان شعر رأسيهما من الغيظ، عندما يعلمان الآن وبعد مضى أكثر من ربع القرن، أن حسين توفيق الهارب الذي كان الراديو يذيع أوصافه كل نصف ساعة، ركب سيارتي وجلس الى جواري علنا، حتى وصلنا الى بيتي، وكنت أسكن بشارع قصر العيني.. واستيقظت زوجتي من نومها لتجد معي « ضيفا ..! ولم يستغرق الأمر بيني وبين شريكة كفاحي وعمري، أكثر من نظرة سريعة وفهم كل منا ما بقلب صاحبه.. ومدت زوجتي يدها لتسلم على القاتل الهارب وتقول له ببساطة: أهلا يا حسين، أرجوك تعتبر نفسك في بيتك.

ويضحك إحسان وهو يتابع قصته قائلا : « ولم يعتبر حسين نفسه في بيته فحسب، بل وجد نفسه شريكا لي في اقدس مكان، بالنسبة لكل زوج، لقد تحول الى شريك لي -برضاى الكامل ـ في حجرة نومي .! .. كانت حجرة النوم هي المكان الوحيد الذي يمكن إبعاد الخادم والطباخ عنه، ومنعهما من دخولها بعذر مقبول لا يثير شكوك اي منهما ، والويل لنا لو ثارت الشكوك في نفس أحدهما.. فقد كانت المكافأة التي رصدتها الدولة للإرشاد عن حسين توفيق مغرية، خمسة آلاف جنيه بالكمال والتمام •• !! ولهذا اتفقت أنا وزوجتي من البداية على أن يقيم حسين بحجرة نومنا، على أن تتكفل هي – بكل قدرتها على التحايل، بابعاد – العيون، عن الحجرة بالنهار، فاذا عدت الى المنزل ليلا اضطررت إلى مشاركة القاتل

الهارب في السرير، الذي ضمني مع حبى طوال عمرنا المشترك منذ تزوجنا حتى اليوم... باستثناء الأيام التي عاشها حسين توفيق في بيتي.

وهكذا يندفع إحسان بكل ثوريته الى المدى الذي لا يتصوره عقل ولا منطق، إحسان المحب الغيور المعروف بالحرص الشديد إلى حد التزمت والاصرار على الابتعاد ببيته عن دائرة الضوء الاجتماعي التي يعيش نفسه فيها، يسمح بوجود رجل غريب في بيته مع زوجته، وفي أي مكان في غرفة نومه طواعية واختيارا.

يقول" كانت زوجتي شجاعة في تلك التجربة الغريبة وكان أعظم مافي شجاعتها هو بساطتها سواء في معاملة حسين توفيق بعطف خفف عليه من وقع المأساة التي كان يعيشها، أو في تقبلها لكل التضحيات التي فرضت عليها طوال شهرين، واستعدادها الأكيد لكل التضحيات التي كان من الممكن أن تفرض عليها لو افتضح أمرنا، لقد تحولت إلى ثائرة صغيرة تتفنن في ابتكار الحيل لكتمان السر القابع في حجرة النوم، وعندما أخلو إليها كانت تحدثني بحماس رائع عن - مغامراتها الهائلة في تضليل الطباخ والخادم لو حاول أحدهما الاقتراب من حجرة النوم.. حتى كانت تتحول أمامي إلى بطلة أسطورية تقاتل بشجاعة، لحماية ظهر أميرها الجميل في حربه المقدسة ضد أعداء خرافيين في قصة خرافية"

المحتويات

مقدمة ٣
طه حسين ٦
عباس محمود العقاد ١٨
مصطفى صادق الرافعي ٣٠
محمد فريد وجدي ٤٠
زكي مبارك ٥٢
توفيق الحكيم ٦٢
أحمد أمين ٧٣
أمير الشعراء ٨٥
محمد التابعي ٩٦
نجيب محفوظ ١٠٧
إحسان عبد القدوس ١١٧